

مغامرات القندس بادي

ثورنتون دبليو برجس



مُغَامَرَاتُ الْقُنْدُسِ بَادِي

تأليف

ثورنتون دبليو برجس

ترجمة

لبنى عماد تركي

مراجعة

مروة عبد الفتاح شحاتة



The Adventures of Paddy the
Beaver

Thornton W. Burgess

مُعَامَرَاتُ الْقُنْدُسِ بَادِي

ثورنتون دبليو برجس

الناشر مؤسسة هنداوي

المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شيتت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة

تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إن مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه.

رسم الغلاف: حنان بغدادي

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ١٤٠٤ ٧

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ١٩١٤.

صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠١٨.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب، وتصميم الغلاف، والترجمة العربية لنص هذا الكتاب مُرَحَّصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المُنْصَف، الإصدار ٤.٠. جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

المحتويات

٧	١- الْقُنْدُسُ بَادِي يَشْرَعُ فِي الْعَمَلِ
٩	٢- تَخْطِيطُ الْبِرْكَه
١١	٣- رُؤَاؤُ بَادِي الْكُتُّرُ
١٣	٤- طَائِرُ السَّنْدِيَانِ سَامِي يُعَبِّرُ عَنْ رَأْيِهِ
١٧	٥- بَادِي يَفِي بِوَعْدِهِ
٢١	٦- فَضُولُ ابْنِ الْمَزَارِعِ براون
٢٣	٧- مُفَاجَأَةٌ جَدِيدَةٌ لِابْنِ الْمَزَارِعِ براون
٢٧	٨- مُغَامَرَةُ الْأَرْزَبِ بَيْتَرِ الْمَائِيَّةِ
٢٩	٩- رَسْمُ خُطَّةِ الْبَيْتِ
٣١	١٠- الشُّرُوعُ فِي بِنَاءِ الْبَيْتِ
٣٣	١١- حَيَرَةُ الْأَرْزَبِ بَيْتَرِ وَفَارِ الْمَسْكِ جيري
٣٥	١٢- دَرَسُ جَدِيدٍ لِفَارِ الْمَسْكِ جيري
٣٩	١٣- الْمَخْزَنُ الْعَجِيبُ
٤٣	١٤- آثَارُ فِي الطِّينِ
٤٥	١٥- زِيَارَةُ سَامِي
٤٩	١٦- الْقَيْوُطُ الْعَجُوزُ الدَّاهِيَةُ
٥١	١٧- حَسْرَةُ الْقَيْوُطِ الْعَجُوزِ
٥٣	١٨- خُطَّةُ الْقَيْوُطِ الْجَدِيدَةِ

٥٥

١٩- صَدَاقَةُ بَادِي وَسَامِي

٥٩

٢٠- سَامِي يَعْزِضُ الْمُسَاعَدَةَ

٦٣

٢١- بَادِي وَسَامِي يَتَعَاوَنَانِ

٦٥

٢٢- بَادِي يَفْرُغُ مِنْ حَصَادِهِ

الفصل الأول

الْقُدُّسُ بَادِي يَشْرَعُ فِي الْعَمَلِ

أَعْمَلْ أَعْمَلْ طَوَالَ اللَّيْلِ،
حِينَ تَسْطَعُ النُّجُومُ،
أَعْمَلْ أَعْمَلْ طَوَالَ النَّهَارِ،
وَلَا وَقْتَ لِلْهُوِ.

أَلَفَ الْقُدُّسُ بَادِي تِلْكَ الْأَبْيَاتَ الْقَصِيرَةَ بَيْنَمَا كَانَ يَعْمَلُ بِكَدٍّ عَلَى بِنَاءِ السِّدِّ الَّذِي كَانَ سَيَصْنَعُ الْبَرَكَةَ الَّتِي تَأْتِي إِلَيْهَا فِي جَوْفِ الْغَابَةِ الْخَضِرَاءِ. طَبْعًا لَمْ يَكُنْ مُحِقًّا تَمَامًا فِيمَا قَالَهُ عَنِ الْعَمَلِ طَوَالَ اللَّيْلِ وَطَوَالَ النَّهَارِ. كَمَا تَعْلُمُونَ، لَا أَحَدَ يُمَكِّنُهُ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ عَلَى الدَّوَامِ؛ فَلَا بُدَّ لِلْجَمِيعِ مِنَ الرَّاحَةِ وَالنَّوْمِ. وَكُلُّنَا لَا بُدَّ أَنْ نَلْهُوَ قَلِيلًا حَتَّى نَكُونَ فِي أَحْسَنِ حَالٍ؛ لِذَا لَمْ يَكُنْ صَحِيحًا أَنْ بَادِي كَانَ يَعْمَلُ طَوَالَ النَّهَارِ بَعْدَ عَمَلِهِ طَوَالَ اللَّيْلِ. وَلَكِنَّ الْحَقَّ أَنَّ بَادِي لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِ وَقْتُ لِلْهُوِ؛ فَقَدْ كَانَ أَمَامَهُ عَمَلٌ كَثِيرٌ، وَقَدْ حَظِيَ بِفُرْصَةٍ لِلْهُوِ أَثْنَاءَ الصَّيْفِ الطَّوِيلِ، وَالْآنَ كَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَسْتَعِدَّ لِلشِّتَاءِ الْبَارِدِ الطَّوِيلِ. وَلَا أَحَدَ مِنَ الصَّغَارِ الْمُجْتَهِدِينَ سَكَانِ الْغَابَةِ الْخَضِرَاءِ وَالْمُرُوجِ الْخَضِرَاءِ وَالْبَرَكَةِ الْبَاسِمَةِ، يُمَكِّنُ أَنْ يُضَاهِيَ الْقُدُّسَ بَادِي، وَلَا حَتَّى ابْنُ عَمِّهِ فَأُرُ الْمِسْكِ جِيرِي. فَالْسَّنَجَابُ جَاكِ السَّعِيدِ وَالسَّنَجَابُ الْبَرِّي الْمُخَطَّطُ يُخَزِّنَانِ الطَّعَامَ مِنْ أَجْلِ الشُّهُورِ الْبَارِدَةِ الطَّوِيلَةِ الْعَاصِفَةِ بِالرِّيَّاحِ الشَّمَالِيَّةِ وَالصَّقِيعِ، وَيَبْنِي فَأُرُ الْمِسْكِ بَيْتًا جَمِيلًا يَجِدُ فِيهِ الدَّفْءَ وَالرَّاحَةَ، وَلَكِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَا يُسَاوِي شَيْئًا مُقَارَنَةً بِعَمَلِ الْقُدُّسِ بَادِي.

فَكَمَا قُلْتُ مِنْ قَبْلُ، كَانَ بَادِي قَدْ حَظِيَ بِفَتْرَةٍ لَهُوَ طَوِيلَةٌ أَثْنَاءَ الصَّيْفِ. وَكَانَ يَدْرَعُ الْجَدُولَ الضَّاحِكَ حَيْثُ وَذَهَابًا، وَيَتَّبِعُ مَجْرَاهُ حَتَّى مَنَبْعِهِ. وَطَوَالَ الْوَقْتُ يُفَكِّرُ وَيَنْفَحِّصُ الْمَكَانَ؛ لِكَيْ يَتَأَكَّدَ مِنْ رَغْبَتِهِ فِي الْبَقَاءِ فِي الْغَابَةِ الْخَضِرَاءِ. كَانَ عَلَيْهِ أَوَّلًا أَنْ يَتَأَكَّدَ مِنْ تَوْفُرِ الطَّعَامِ الَّذِي يَسْتَسَيِّغُهُ. ثُمَّ عَلَيْهِ أَنْ يَتَأَكَّدَ أَيْضًا مِنْ تَمَكُّنِهِ مِنْ صُنْعِ بَرْكَةٍ بِالْقُرْبِ مِنْ حَيْثُ يَنْبُتُ ذَاكَ الطَّعَامُ تَحْدِيدًا. وَأَخِيرًا، عَلَيْهِ التَّأَكُّدُ مِنْ أَنَّهُ إِذَا صَنَعَ الْبَرْكَةَ وَبَنَى بَيْتًا فِعْلًا، فَسَيَجِدُ فِيهِ قَدْرًا كَبِيرًا مِنَ الْأَمَانِ. وَكُلُّ ذَلِكَ قَامَ بِهِ أَثْنَاءَ اللَّهْوِ. وَالْآنَ بَاتَ مُسْتَعِدًّا لِبَدْءِ الْعَمَلِ، وَعِنْدَمَا يَشْرَعُ بَادِي فِي الْعَمَلِ، فَإِنَّهُ يَعْكَفُ عَلَيْهِ حَتَّى يَنْتَهِيَ؛ فَهُوَ يَقُولُ إِنَّ ذَلِكَ هُوَ السَّبِيلُ الْوَحِيدُ إِلَى النِّجَاحِ، وَكُلُّنَا نَعْلَمُ أَنَّهُ مُحِقٌّ.

يَسْتَطِيعُ الْقُنْدُسُ بَادِي أَنْ يَرَى فِي اللَّيْلِ مِثْلَ الثُّغْلَبِ رِيْدِي وَالْأَرْزَبِ بَيْتِ وَالرَّائِوْنِ بُوْبِي تَمَامًا، وَهُوَ يُفَضِّلُ اللَّيْلَ؛ لِأَنَّهُ أَكْثَرُ وَقْتُ يَشْعُرُ فِيهِ بِالْأَمَانِ. وَلَكِنَّهُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَرَى فِي النَّهَارِ أَيْضًا. وَعِنْدَمَا يَشْعُرُ بِالْأَمَانِ التَّامِّ وَبِأَنَّ أَحَدًا لَا يُرَاقِبُهُ، يَعْمَلُ نَهَارًا أَيْضًا. قَطْعًا كَانَ أَوَّلَ مَا يَجِبُ عَمَلُهُ هُوَ بِنَاءُ سَدٍّ فَوْقَ الْجَدُولِ الضَّاحِكِ حَتَّى يَصْنَعَ الْبَرْكَةَ الَّتِي كَانَ فِي أَمْسِ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا. فَاخْتَارَ بُقْعَةً مَفْتُوحَةً مُنْخَفِضَةً فِي جَوْفِ الْغَابَةِ الْخَضِرَاءِ، نَمَا حَوْلَهَا الْكَثِيرُ مِنْ أَشْجَارِ الْحَوْرِ الرَّجْرَاجِ الصَّغِيرَةِ، الَّتِي يُمَثِّلُ لِحَاوُهَا طَعَامَهُ الْمُفَضَّلَ. وَكَانَ الْجَدُولُ الضَّاحِكُ يَخْتَرِقُ تِلْكَ الْبُقْعَةَ الْمَفْتُوحَةَ فِي مُنْتَصَفِهَا. وَعِنْدَ الْحَافَةِ السُّفْلِيَّةِ وَجَدَ الْمَكَانَ الْأَمْتَلَّ لِبِنَاءِ السَّدِّ. فَلَمْ يَكُنْ مِنَ الضَّرُورِيِّ أَنْ يَكُونَ بِالِغِ الطُّوْلِ، وَعِنْدَمَا يَنْتَهِي مِنْهُ وَيَعْتَزُّ طَرِيقَ الْمِيَاهِ فِي الْجَدُولِ الضَّاحِكِ، فَلَنْ يَكُونَ أَمَامَهَا سِوَى أَنْ تَتَدَقَّقَ إِلَى الْبُقْعَةِ الْمُنْخَفِضَةِ وَتَصْنَعَ بَرْكَةً هُنَاكَ. فَبَرَقَتْ عَيْنَا بَادِي عِنْدَمَا وَقَعَتْ عَلَى ذَلِكَ الْمَكَانِ. وَفِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ قَرَّرَ الْبَقَاءَ فِي الْغَابَةِ الْخَضِرَاءِ.

وَالْآنَ بَعْدَ أَنْ صَارَ مُسْتَعِدًّا لِلشُّرُوعِ فِي بِنَاءِ السَّدِّ، اتَّجَهَ نَحْوَ أَعْلَى الْجَدُولِ الضَّاحِكِ، حَيْثُ تَنْمُو أَشْجَارُ جَارِ الْمَاءِ وَأَشْجَارُ الصَّفْصَافِ، وَهُنَاكَ بَدَأَ عَمَلَهُ؛ فَرَاحَ يَقَطِّعُ عَدَدًا كَبِيرًا مِنَ الْأَشْجَارِ بِأَسْنَانِهِ الْأَمَامِيَّةِ الْكَبِيرَةِ الَّتِي رَزَقَ بِهَا لِهَذَا الْغَرَضِ تَحْدِيدًا. وَبَيْنَمَا كَانَ يَعْمَلُ، شَعَرَ بَادِي بِالسَّعَادَةِ؛ فَالْمَرْءُ لَا يَشْعُرُ بِسَعَادَةٍ حَقِيقِيَّةٍ دُونَ عَمَلٍ.

الفصل الثاني

تَخْطِيطُ الْبَرَكَةِ

انْهَمَكَ الْقُنْدُسُ بَادِي فِي تَقْطِيعِ الْأَشْجَارِ مِنْ أَجْلِ السَّدِّ الَّذِي كَانَ يَنْوِي بِنَاءَهُ؛ فَكَانَ قَدْ تَعَلَّمَ فِي الْغَابَاتِ الشَّمَالِيَّةِ الَّتِي أَتَى مِنْهَا إِلَى الْغَابَةِ الْخَضِرَاءِ كُلِّ شَيْءٍ عَنْ تَقْطِيعِ الْأَشْجَارِ وَإِقَامَةِ السُّدُودِ وَحَفْرِ الْقَنَوَاتِ وَبِنَاءِ الْبُيُوتِ. فَقَدْ كَانَ وَالِدَا بَادِي عَلَى دِرَايَةٍ كَبِيرَةٍ بِمَجْرِيَّاتِ الْأُمُورِ فِي عَالَمِ الْقَنَادِسِ، وَكَانَ بَادِي سَرِيعَ التَّعَلُّمِ؛ لِذَا كَانَ يَعْلَمُ الآنَ مَا يَجِبُ أَنْ يَقُومَ بِهِ وَكَيْفِيَّةَ الْقِيَامِ بِهِ عَلَى أَكْمَلِ وَجْهِهِ. فَكَمَا تَعْلَمُونَ، يَهْدُرُ الْكَثِيرُ مِنَ النَّاسِ الْوَقْتَ وَالْجُهْدَ فِي الْقِيَامِ بِالْأَعْمَالِ عَلَى النِّحْوِ الْخَاطِئِ، بِحَيْثُ يُضْطَرُّونَ إِلَى الْقِيَامِ بِهَا مِنْ جَدِيدٍ. فَهُمْ يَنْسَوْنَ أَنْ يَتَأَكَّدُوا مِنْ أَنَّهُمْ عَلَى صَوَابٍ؛ وَمِنْ ثَمَّ يَمْضُونَ قُدَمَا حَتَّى يَكْتَشِفُوا أَنَّهُمْ مُخْطِئُونَ، وَيَضِيعُ عَمَلُهُمْ كُلُّهُ سُدًى.

وَلَكِنَّ الْقُنْدُسَ بَادِي لَيْسَ مِنْ أَوْلَئِكَ النَّاسِ. فَبَادِي لَمْ يَكُنْ أَبَدًا لِيَثِبَ فِي النَّبْعِ مُنَحْدِرَ الْجَانِبَيْنِ دُونَ أَنْ يَتَرَيَّثَ، مِثْلَمَا يَفْعَلُ الْجَدُّ ضَفْدَعٌ. وَالْآنَ أَخَذَ يَنْتَقِي الْأَشْجَارَ الَّتِي سَوْفَ يَقْطَعُهَا بِعِنَايَةٍ. فَلَمْ يَكُنْ لَدَيْهِ وَقْتُ يَضِيعُهُ فِي تَقْطِيعِ شَجَرَةٍ لَنْ تَكُونَ مُنَاسِبَةً لَهُ تَمَامًا بَعْدَمَا تَسْقُطُ. فَعِنْدَمَا تَأَكَّدَ مِنْ أَنَّهَا مُنَاسِبَةٌ، نَظَرَ إِلَى قِمَّتِهَا لِيَعْرِفَ إِذَا كَانَتْ — بَعْدَ أَنْ يُقْطَعُهَا — سَتَسْقُطُ بَعِيدًا عَنِ الْأَشْجَارِ الْأُخْرَى؛ فَقَدْ تَعَلَّمَ ذَلِكَ عِنْدَمَا كَانَ صَغِيرًا طَائِشًا. فَقَدْ كَانَ يَذْكُرُ شُعُورَهُ بَعْدَمَا عَمِلَ بِكَدٍّ شَدِيدٍ فِي تَقْطِيعِ شَجَرَةٍ كَبِيرَةٍ، وَنَبَّهَ جَمِيعَ أَصْدِقَائِهِ حَتَّى يَخْلُوا الطَّرِيقَ لِكَيْلَا يَتَعَرَّضُوا لِلْأَذَى إِثْرَ سُقُوطِهَا، ثُمَّ لَمْ تَسْقُطْ مِنَ الْأَسَاسِ؛ لِأَنَّ قِمَّتَهَا اشْتَبَكَتْ بِشَجَرَةٍ أُخْرَى. فَشَعَرَ بِخِزْيٍ بَالِغٍ لَمْ يَسْتَطِعِ التَّغَلُّبَ عَلَيْهِ فَتَرَةً طَوِيلَةً.

فَبَاتَ الْآنَ يَتَأَكَّدُ أَنَّ الشَّجَرَةَ سَتَسْقُطُ بَعِيدًا وَحَيْثُمَا يُرِيدُهَا تَمَامًا. ثُمَّ جَلَسَ عَلَى سَاقِيهِ الْخَلْفَيْتَيْنِ، مُرْتَكِزًا عَلَى ذَيْلِهِ الْعَرِيضِ كَرِعَامَةٍ، وَبَدَأَتْ رُقَاقَاتُ الْخَشَبِ تَنْطَاطِرُ بِفِعْلِ أَسْنَانِهِ. فَكَمَا تَعْلَمُونَ، يَمْلِكُ بَادِي أَسْنَانًا مُمْتَارَةً لِلْغَايَةِ لِتَقْطِيعِ الْأَشْجَارِ، فَهِيَ طَوِيلَةٌ وَعَرِيضَةٌ وَحَادَّةٌ. كَانَ يَبْدَأُ بِقَضْمَةِ غَائِرَةٍ، ثُمَّ أُخْرَى أَسْفَلَهَا بِمَسَافَةٍ قَصِيرَةٍ، ثُمَّ يَقْتَلَعُ قِطْعَةً الْخَشَبِ الصَّغِيرَةَ الْوَاقِعَةَ بَيْنَ الْقَضْمَتَيْنِ. وَعِنْدَمَا يَتَوَغَّلُ فِي تَقْطِيعِ الشَّجَرَةِ مِنْ جَانِبٍ وَاحِدٍ يُؤَدِّي إِلَى سُقُوطِ الشَّجَرَةِ فِي ذَلِكَ الْإِتْجَاهِ؛ يُكْمِلُ عَمَلَهُ حَتَّى يَبْلُغَ الْجَانِبَ الْآخَرَ. وَبِمَجَرَّدِ أَنْ تَبْدَأَ الشَّجَرَةُ فِي التَّمَايُلِ وَيَتَأَكَّدُ مِنْ أَنَّهَا سَتَسْقُطُ، يُهْرَعُ مُبْتَعِدًا عَنِ الْخَطَرِ. وَكَانَ يُحِبُّ مُشَاهَدَةَ تِلْكَ الْأَشْجَارِ الْعَالِيَةِ وَهِيَ تَمِيلُ إِلَى الْأَمَامِ بِطُءٍ، ثُمَّ أَسْرَعَ فَأَسْرَعَ؛ حَتَّى تَرْتَظِمَ بِالْأَرْضِ مُحْدِثَةً صَوْتًا مُدَوِّيًا.

وَبِمَجَرَّدِ أَنْ تَسْقُطَ، يُجَرِّدُهَا مِنْ فُرُوعِهَا إِلَى أَنْ تَصِيرَ الْأَشْجَارُ كَأَعْمِدَةٍ طَوِيلَةٍ. لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ بِالْعَمَلِ الشَّاقِّ لَهُ؛ فَقَدْ كَانَ بِاسْتِطَاعَتِهِ اقْتِلَاعُ فَرْعِ شَجَرَةٍ كَبِيرٍ بِقَضْمَةٍ وَاحِدَةٍ. وَكَثِيرٌ مِنَ الْأَشْجَارِ كَانَ يَتْرُكُ قِمَمَهَا الْمُورِقَةَ، وَعِنْدَمَا يَنْتَهِي مِنْ تَشْدِيدِ الْفُرُوعِ بِمَا يُلَاقِيهَا وَيَقْطَعُهَا إِلَى أَطْوَالٍ مُنَاسِبَةٍ، يَشُدُّهَا وَيَجْذِبُهَا إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي يَنْتَوِي بِنَاءِ السَّدِّ فِيهِ.

وَهُنَاكَ يَضَعُ الْجُدُوعَ جَنْبًا إِلَى جَنْبٍ، وَلَيْسَ بِعَرَضِ الْجَدُولِ الضَّاحِكِ كَالْجَسْرِ، وَإِنَّمَا يَضَعُهَا بِحَيْثُ تَكُونُ أَطْرَافُهَا الْكَبِيرَةُ مُتَّجِهَةً إِلَى أَعْلَى الْجَدُولِ الضَّاحِكِ، الَّذِي كَانَ عَرِيضًا إِلَى حَدٍّ كَبِيرٍ وَلَكِنْ ضَحَلًا فِي تِلْكَ الْبُقْعَةِ. وَلَكِي يَحُولَ دُونَ طَفْوِ الْجُدُوعِ بَعِيدًا، كَانَ يُدْخِرُ الْحَصَى وَيَكْوُمُ الطِّينَ عَلَى أَطْرَافِهَا الْمُورِقَةِ. وَرَاحَ يَرْصُ تِلْكَ الْجُدُوعَ حَتَّى بَدَأَ الْمَاءُ يَرْتَفِعُ عَلَى جَانِبِي النَّهْرِ. ثُمَّ جَرَّ الْمَزِيدَ مِنَ الْجُدُوعِ وَكَوَّمَهَا فَوْقَ الْأُولَى وَحَشَرَ عَصِيًّا قَصِيرَةً بَيْنَهَا بِالْعَرَضِ.

وَطَوَالَ الْوَقْتِ كَانَ الْجَدُولُ الضَّاحِكُ يُوَاجِهَ صُعُوبَةً مُتَزَايِدَةً فِي التَّدْفُقِ، فَصَارَتْ ضَحْكَتُهُ الْمُبْتَهَجَةَ أَقْلَ بَهْجَةٍ وَفِي النِّهَايَةِ تَوَقَّفَتْ؛ لِأَنَّ الْمِيَاءَ لَمْ تَسْتَطِعِ الْمُرُورَ عِزْرَ كُلِّ تِلْكَ الْجُدُوعِ وَالْعَصِيِّ بِالسَّرْعَةِ الْكَافِيَةِ. وَحِينَئِذٍ قَرَّرَ سُكَّانُ الْبَرَكَةِ الْبَاسِمَةِ الصَّغَارُ أَنَّهُ أَنْ الْأَوَّلَ أَنْ يَعْرِفُوا مَا يَفْعَلُهُ بَادِي تَحْدِيدًا، فَانْطَلَقُوا إِلَى أَعْلَى مَجْرَى الْجَدُولِ الضَّاحِكِ، تَارِكِينَ خَلْفَهُمُ الْجَدَّ ضَفْدَعٌ وَالضَّفَادِعَ الصَّغِيرَةَ فَحَسَبُ فِي الْبَرَكَةِ الْبَاسِمَةِ، الَّتِي سَتُفَارِقُهَا الْبَسْمَةُ لِلْبَرَهَةِ.

الفصل الثالث

زَوَّارُ بَادِي الْكُثْرِ

كَانَ الْقُنْدُسُ بَادِي يَعْلَمُ تَمَامَ الْعِلْمِ أَنَّهُ سَيَسْتَقْبِلُ زَوَّارًا بِمَجَرَّدِ أَنْ يَشْرَعَ فِي بِنَاءِ السَّدِّ. وَكَانَ يَتَوَقَّعُ مَجِيءَ كَثِيرٍ مِنْهُمْ؛ فَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ أَيًّا مِنْهُمْ لَمْ يَسْبِقْ لَهُ أَنْ رَأَى قُنْدُسًا أَثْنَاءَ عَمَلِهِ مَا لَمْ يَرَوْا الشَّيْهَمَ الْبَدِينِ بَرِيكِي بوركِي، الَّذِي أَتَى مِنَ الشَّمَالِ أَيْضًا. لِذَا كَانَ يُرْهِفُ السَّمْعَ أَثْنَاءَ عَمَلِهِ، وَيَبْتَسِمُ لِنَفْسِهِ لَدَى سَمَاعِهِ صَوْتَ حَفِيفٍ خَافَتْ هُنَا يَتَّبَعُهُ حَفِيفٌ خَافَتْ هُنَاكَ. فَقَدْ كَانَ يَعْرِفُ مَا يَعْنِيهِ ذَاكَ الْحَفِيفُ. فَكُلُّ حَفِيفٍ مَعْنَاهُ زَائِرٌ جَدِيدٌ. نَعَمْ، كُلُّ حَفِيفٍ مَعْنَاهُ زَائِرٌ جَدِيدٌ، وَلَكِنَّ أَيًّا مِنْهُمْ لَمْ يَظْهَرْ.

فَأَطْلَقَ بَادِي ضِحْكَةً خَافَتَهُ وَقَالَ بِصَوْتٍ عَالٍ، كَأَنَّهُ لَا يَكْلَمُ أَحَدًا بِالتَّحْدِيدِ: «يَبْدُو لِي أَنَّكُمْ تَخَافُونَ الظُّهُورَ أَشَدَّ الْخَوْفِ.» فَسَادَ السُّكُونُ الْمَكَانَ. وَلَمْ يَصْدُرْ أَدْنَى حَفِيفٍ بَعْدَ حَدِيثِ بَادِي. فَأَطْلَقَ ضِحْكَةً خَافَتَهُ أُخْرَى. فَقَدْ كَانَ يَشْعُرُ فَقْطُ بَعْضِ عِدَّةٍ تُرَاقِبُهُ، وَإِنْ لَمْ يَرَ أَيًّا مِنْهَا. وَكَانَ يَعْلَمُ أَنَّ تَوَخُّي زَائِرِيهِ الْحَذَرَ الشَّدِيدَ فِي الْإِخْتِبَاءِ مِنْهُ يَرْجِعُ إِلَى خَوْفِهِمْ مِنْهُ. فَبَادِي أَكْبَرُ حَجْمًا مِنْ مُعْظَمِ سُكَّانِ الْمُرُوجِ وَالْغَابَةِ الصَّغَارِ، وَلَمْ يَكُنْ لَدَيْهِمْ عِلْمٌ بِطَبِيعَةِ مَزَاجِهِ. فَالْأَسْلَمُ دَائِمًا أَنْ يَرْتَابَ الْمَرْءُ بِشِدَّةٍ فِي الْأَعْرَابِ. وَذَلِكَ أَحَدُ أَوَائِلِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي يَتَعَلَّمُهَا جَمِيعُ سُكَّانِ الْمُرُوجِ وَالْغَابَةِ الصَّغَارِ.

وَطَبْعًا كَانَ بَادِي يَعْلَمُ كُلَّ ذَلِكَ؛ فَقَدْ نَشَأَ عَلَى النُّحُوِّ ذَاتِهِ. إِذْ كَانَ أَحَدَ الْأَقْوَالِ الْمَأْثُورَةِ الْمُفْضَلَةِ لَدَى أُمِّهِ، الَّذِي لَمْ يَغِبْ عَنْ بَالِهِ قَطُّ: «تَأَكَّدْ أَنَّكَ مُصِيبٌ، وَحِينَهَا لَنْ تَأْسَفَ أَبَدًا.» وَالْوَاقِعُ أَنَّ ذَلِكَ الْقَوْلَ وَفَّرَ عَلَيْهِ مَتَاعَبَ جَمَّةٍ. لِذَا كَانَ الْآنَ عَلَى كَامِلِ الْإِسْتِعْدَادِ لِأَنْ يُوَاصِلَ عَمَلَهُ وَيَدْعَ زَوَّارَهُ الْمُخْتَبِينَ يُرَاقِبُونَهُ حَتَّى يَطْمَئِنُّوا أَنَّهُ لَا يُمَثِّلُ خَطَرًا عَلَيْهِمْ. أَمَّا عَنْهُ فَكَانَ وَاثِقًا، إِلَى حَدِّ كَبِيرٍ، مِنْ أَنْ لَا أَحَدٌ مِنْهُمْ كَبِيرٌ بِمَا يَكْفِي

لِكَيْ يُسَبِّبَ لَهُ أَيْ أَدَّى؛ فَتَغْلَبَ الْمَاءُ الصَّغِيرُ جَوْهُ الْوَحِيدُ الَّذِي يَرْتَابُ فِيهِ، وَلَكِنَّهُ كَانَ وَاقِعًا، إِلَى حَدٍّ كَبِيرٍ، أَنَّهُ لَنْ يُحَاوَلَ أَنْ يَخْتَلِقَ شَجَارًا مَعَهُ. لِذَا ظَلَّ يَقْطَعُ الْأَشْجَارَ وَيَنْزِعُ عَنْهَا الْفُرُوعَ، ثُمَّ يَسْحَبُ جُدُوعَهَا إِلَى الْأَسْفَلِ عِنْدَ السِّدِّ الَّذِي كَانَ يَبْنِيهِ. وَكَانَ يَدْفَعُ بَعْضَهَا لِتَطْفُو عَلَى سَطْحِ الْجَدُولِ الضَّاحِكِ مُتَّجِهَةً إِلَى أَسْفَلِ مَجْرَاهُ، فَذَلِكَ أَيْسَرُ.

وَعِنْدَمَا اتَّجَهَ سُكَّانُ الْبَرْكَةِ الْبَاسِمَةِ الصَّغَارُ — وَهُمْ أَوَّلُ مَنْ اكْتَشَفَ أَنَّ الْقُنْدُسَ بَادِي قَدْ أَتَى إِلَى الْغَابَةِ الْخَضْرَاءِ — إِلَى أَعْلَى مَجْرَى الْجَدُولِ الضَّاحِكِ لِيَنْظُرُوا مَاذَا يَفْعَلُ، وَأَخْبَرُوا النَّسَمَاتِ الرَّقِيقَةَ الْمَرِحَةَ بِوُجْهِتِهِمْ، اضْطَرَبَتِ النَّسَمَاتُ أَيْمًا اضْطِرَابٍ، وَلَمْ تَفْهَمْ كَيْفَ يُمَكِّنُ أَنْ يَأْتِيَ غَرِيبٌ لِلْعَيْشِ فِي الْغَابَةِ الْخَضْرَاءِ دُونَ عِلْمِهَا. فَقَدْ نَسِيَتْ أَنَّهَا نَادِرًا جَدًّا مَا تَجُولُ فِي جَوْفِ الْغَابَةِ الْخَضْرَاءِ. وَبِالطَّبْعِ انْطَلَقَتْ عَلَى الْفُورِ بِأَقْصَى سُرْعَةٍ لِتُخْبِرَ بَقِيَّةَ سُكَّانِ الْمُرُوجِ الْخَضْرَاءِ الصَّغَارِ وَالْمَنَاطِقِ الْمُحِيطَةِ بِهَا، كُلَّهُمْ إِلَّا الْقَيُْوطَ الْعُجُوزَ. فَلِسَبَبٍ مَا رَأَتْ أَنَّهُ مِنَ الْأَفْضَلِ أَلَّا تُخْبِرَهُ؛ فَقَدْ كَانَتْ تَنْتَابُهَا بَعْضُ الشُّكُوكِ إِزَاءَ الْقَيُْوطِ الْعُجُوزِ؛ فَقَدْ كَانَ كَبِيرًا وَقَوِيًّا جَدًّا وَشَدِيدَ الْمَكْرِ وَالذِّكَاءِ، حَتَّى إِنْ جَمِيعَ حَيْرَانِهِ كَانُوا يَخَافُونَهُ. رُبَّمَا كَانَ ذَلِكَ مَا جَالَ بِبَالِ النَّسَمَاتِ الرَّقِيقَةِ الْمَرِحَةِ، وَعَرَفَتْ أَنَّ لَا أَحَدَ سَيَجْرُو عَلَى الذَّهَابِ لِزِيَارَةِ الْغَرِيبِ إِنْ عَرَفَ أَنَّ الْقَيُْوطَ الْعُجُوزَ ذَاهِبٌ بِدَوْرِهِ. وَعَلَى أَيْ حَالٍ، فَقَدْ اكْتَفَتْ بِقَضَاءِ ذَلِكَ الْوَقْتِ مِنَ الْيَوْمِ مَعَ الْقَيُْوطِ الْعُجُوزِ، ثُمَّ أَسْرَعَتْ لِتُخْبِرَ الْبَاقِينَ جَمِيعًا، وَكَانَ آخِرُ مِنَ التَّقَتَّةِ هُوَ طَائِرُ السَّنْدِيَانِ سَامِي.

إِنْ أَكْثَرَ مَا يُزَعِّجُ سَامِي فِكْرُهُ أَنْ يَجْرِيَ شَيْءٌ دُونَ أَنْ يَكُونَ أَوَّلَ مَنْ يَعْلَمُ بِهِ. فَهُوَ كَمَا تَعْلَمُونَ شَدِيدُ الْوَلَعِ بِالتَّدْخُلِ فِي شُئُونِ الْآخَرِينَ، وَأَكْثَرُ مَا يُحِبُّ أَنْ يَتَفَاحَرَ بِأَنْ لَا شَيْءٌ يَجْرِي فِي الْغَابَةِ الْخَضْرَاءِ أَوْ عَلَى الْمُرُوجِ الْخَضْرَاءِ دُونَ عِلْمِهِ. فَلِأَنَّ أَحْسَسَ جُرْحًا فِي كِبْرِيائِهِ، وَكَانَ غَاضِبًا أَشَدَّ الْغَضَبِ بَيْنَمَا تَبَعَ النَّسَمَاتِ الرَّقِيقَةَ الْمَرِحَةَ إِلَى جَوْفِ الْغَابَةِ الْخَضْرَاءِ؛ حَيْثُ قَالُوا إِنَّ الْقُنْدُسَ بَادِي كَانَ يَعْمَلُ. لَمْ يُصَدِّقْ حَرْفًا مِمَّا سَمِعَ، وَلَكِنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَتَأَكَّدَ بِنَفْسِهِ.

الفصل الرابع

طائر السنديان سامي يُعبر عن رأيه

عندما بلغ طائر السنديان سامي الموضع الذي انهمك فيه القندس بادي في العمل في جوف الغابة الخضراء، لم يختبئ كما فعلت الحيوانات الصغيرة التي تسيّر على أربع أرجل. فطبعاً لم يكن ثمة ما يدفعه إلى الاختباء؛ لأنه شعر بأمان تام. وكان بادي قد انتهى لتوه من تقطيع شجرة كبيرة، وسقطت محدثة صوتاً مدوياً لدى مجيء سامي متعجلاً. فعقدت الدهشة لسان سامي لوهلة؛ فهو لم يتخيل أن أحداً، عدا المزارع براون أو ابنه، يمكنه تقطيع مثل تلك الشجرة الكبيرة، فخطف المشهد أنفاسه، ولكنه سرعان ما استردّها. فقد كان يشاط غضباً على أيّ حالٍ من فكرة كونه آخر من يعلم بمجيء بادي من الشمال ليتخذ داراً في الغابة الخضراء، وها قد أتته الفرصة لكي يُعبر عن رأيه. فصاح بصوت أجش قائلاً: «لصّ! لصّ! لصّ!»

فنظر القندس بادي إلى أعلى بعينين باسمتين، وقال: «مرحباً يا سيدي طائر السنديان! أرى أنك لست أحسن سلوكاً من ابن عمك الذي يعيش في الغابة التي أتيت منها.»

فصاح سامي وهو يتوآب من شدة غضبه: «لصّ! لصّ! لصّ!» فردّ عليه بادي قائلاً: «أظنك تتحدّث عن نفسك؛ فلم يسبق لي قط أن رأيت طائر سنديان نزيهاً، ولا أظنني سآرى واحداً أبداً.» فصحك الأرنب بيتر، الذي كان قد نسي تقريباً أنه مُحْتَبى: «ها ها ها!»

فَقَالَ بَادِي، وَكَأَنَّ مَكَانَ بَيْتِ لَمْ يَكُنْ مَعْلُومًا لَهُ طَوَالَ الْوَقْتِ: «أَه، كَيْفَ حَالُكَ يَا سَيِّدِي الْأَزْنَبُ؟ سَرَّتْنِي كَثِيرًا زِيَارَتُكَ لِي الْيَوْمَ. يَبْدُو لِي أَنَّ السَّيِّدَ سَنَدِيانَ مُتَعَكِّرَ الْمَزَاجِ الْيَوْمَ.»

فَضَحِكَ بَيْتَرُ مُجَدِّدًا وَقَالَ: «ذَلِكَ حَالُهُ دَائِمًا. وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُتَعَكِّرَ الْمَزَاجِ، فَلَنْ يَكُونَ مَسْرُورًا. رُبَّمَا لَنْ تَظُنَّ ذَلِكَ عِنْدَمَا تَنْظُرُ إِلَيْهِ، وَلَكِنَّهُ مَسْرُورٌ الْآنَ. هُوَ لَا يَعْلَمُ ذَلِكَ، لَكِنَّهُ مَسْرُورٌ فَعَلًا؛ فَدَائِمًا مَا يَسْرُهُ الْإِفْصَاحُ عَنْ تَعَكُّرِ مَزَاجِهِ.»

فَنَظَرَ طَائِرُ السَّنَدِيَانِ سَامِيَ شَرًّا إِلَى بَيْتَرِ، ثُمَّ نَظَرَ شَرًّا إِلَى بَادِي. وَكَانَ يَصِيحُ طَوَالَ الْوَقْتِ قَائِلًا: «لِصُّ!» بِمِلءٍ فِيهِ. أَمَّا بَادِي فَوَاصَلَ عَمَلَهُ دُونَ أَنْ يُعَيِّرَ سَامِيَ اهْتِمَامًا، وَهُوَ مَا أَغْضَبَ سَامِيَ أَشَدَّ الْغَضَبِ؛ فَرَاحَ يَقْتَرِبُ أَكْثَرَ فَأَكْثَرَ حَتَّى صَارَ فِي النِّهَايَةِ عَلَى الشَّجَرَةِ ذَاتَهَا الَّتِي كَانَ بَادِي يَقْطَعُهَا؛ فَفَرِقَتْ عَيْنَا بَادِي. ثُمَّ هَتَفَ فَجَاءَةً: «لَسْتُ بِلِصٍّ!»

صَاحَ سَامِي قَائِلًا: «بَلْ أَنْتَ لِصٌّ! أَنْتَ لِصٌّ! إِنَّكَ تَسْرِقُ أَشْجَارَنَا!» فَزَدَ عَلَيْهِ بَادِي قَائِلًا: «تِلْكَ الْأَشْجَارُ لَيْسَتْ مِلْكًا لَكُمْ. إِنَّهَا مِلْكُ الْغَابَةِ الْخَضْرَاءِ، وَالْغَابَةِ الْخَضْرَاءِ مِلْكُ كُلِّ مَنْ يُحِبُّونَهَا، وَكُلُّنَا نَتَمَتَّعُ بِكَامِلِ الْحَقِّ فِي أَخْذِ مَا يَلْزُمُنَا مِنْهَا. أَنَا بِحَاجَةٍ إِلَى تِلْكَ الْأَشْجَارِ، وَيَحِقُّ لِي أَنْ أَخْذَهَا تَمَامًا كَمَا يَحِقُّ لَكَ أَنْ تَأْخُذَ ثَمَرَاتِ الْجَوْزِ السَّمِينَةِ الَّتِي تَتَسَاقَطُ مِنْ أَشْجَارِ الْبَلُوطِ فِي الْخَرِيفِ.»

فَصَاحَ سَامِي: «لَيْسَ صَحِيحًا.» كَمَا تَعْلَمُونَ، لَا يَسْتَطِيعُ سَامِي أَنْ يَتَحَدَّثَ دُونَ صِيَاحٍ، وَكُلَّمَا زَادَ حَمَاسُهُ عَلَا صِيَاحُهُ. فَأَزْدَفَ صَائِحًا: «لَيْسَ صَحِيحًا! فَالْجَوْزُ طَعَامٌ. الْغَرَضُ مِنْهُ هُوَ أَكْلُهُ. وَبَجِبُ أَنْ أَكُلَهُ كَيْ أَعِيشَ. وَلَكِنَّكَ تَقْطَعُ أَشْجَارًا كَامِلَةً. إِنَّكَ تَخْرُبُ الْغَابَةَ الْخَضْرَاءَ، وَلَا تَنْتَمِي إِلَى هُنَا، وَلَمْ يَدْعُكَ أَحَدٌ، وَلَا أَحَدٌ يُرِيدُكَ. أَنْتَ لِصٌّ!»

حِينَهَا تَكَلَّمَ فَأَرَى الْمُسْكَ جَبْرِي، وَهُوَ كَمَا تَعْلَمُونَ ابْنُ عَمِّ الْقُنْدُسِ بَادِي. فَقَالَ مُشِيرًا إِلَى طَائِرِ السَّنَدِيَانِ سَامِي: «لَا تَبَالِ بِهِ. لَا أَحَدٌ يُبَالِي بِهِ؛ فَهُوَ أَكْبَرُ مُشَاغِبٍ، سَوَاءٌ فِي الْغَابَةِ الْخَضْرَاءِ أَوْ الْمَرْوَجِ الْخَضْرَاءِ. وَقَدْ يَسْرِقُ أَقْرِبَاءَهُ. لَا تَبَالِ بِمَا يَقُولُ يَا ابْنُ الْعَمِّ بَادِي.»

وَطَوَالَ ذَلِكَ الْوَقْتِ كَانَ بَادِي مُسْتَمِرًّا فِي عَمَلِهِ كَأَنَّهُ وَاقِفٌ بِمُفْرَدِهِ. وَمَا إِنْ أَنْهَى جَبْرِي حَدِيثَهُ حَتَّى ضَرَبَ بَادِي الْأَرْضَ بِذَيْلِهِ، وَهِيَ طَرِيقُهُ تَحْذِيرُهُ الْأَخْرَيْنِ، ثُمَّ جَرَى

مُبْتَعِدًا فَجَاءَ بِأَقْصَى سُرْعَةٍ. فَعَقَدَتِ الدَّهْشَةُ لِسَانَ سَامِي لَوْهَلَةٍ، وَلَمْ يَلْحَظْ أَيَّ شَيْءٍ غَرِيبٍ فِي الشَّجَرَةِ. وَفَجَاءَ شَعَرَ أَنَّهُ يَسْقُطُ؛ فَأَطْلَقَ صَرْخَةً مَدْعُورَةً، ثُمَّ بَسَطَ جَنَاحَيْهِ لِيَطِيرَ، وَلَكِنَّ فُرُوعَ الشَّجَرَةِ سَحَبَتْهُ مَعَهَا إِلَى أَسْفَلٍ لِيَسْقُطَ فِي الْجَذُولِ الضَّاحِكِ مُبَاشَرَةً. فَبَيْنَمَا كَانَ سَامِي يُعَبِّرُ عَنْ رَأْيِهِ، قَطَعَ بَادِي الشَّجَرَةِ ذَاتَهَا الَّتِي كَانَ يَجْلِسُ عَلَيْهَا. لَمْ يُصَبِّ سَامِي بِسُوءٍ، وَلَكِنَّهُ كَانَ مُبْتَلًا مُلَطَّخًا بِالطِّينِ وَفَزَعًا؛ فَبَدَأَ اتَّعَسَ طَائِرِ سَنْدِيَانٍ فِي الْوُجُودِ. وَكَانَ مَنْظَرُهُ أَقْوَى مِنْ قُدْرَةِ جَمِيعِ الْحَيَوَانَاتِ الصَّغِيرَةِ الْمُخْتَبِئَةِ عَلَى التَّحْمُلِ. فَلَمْ يَسْتَطِيعُوا مَنَعَ أَنْفُسِهِمْ مِنَ الضَّحِكِ. ثُمَّ خَرَجُوا جَمِيعًا لِتَحِيَّةِ الْقُنْدُسِ بَادِي.

الفصل الخامس

بادي يفي بوَعْدِه

وَاصِلَ الْقُنْدُسِ بَادِي عَمَلُهُ كَأَنَّمَا لَمْ يَأْتِهِ زُورًا؛ فَمِهْمُهُ بِنَاءُ سَدٍّ هِيَ مُهْمَةٌ كَبِيرَةٌ. وَعِنْدَمَا يَنْتَهِي مِنْ ذَلِكَ سَيَكُونُ عَلَيْهِ أَنْ يَبْنِيَ بِنِيًّا وَأَنْ يَقْطَعَ إِمْدَادَاتِ الشِّتَاءِ مِنَ الْغِذَاءِ وَيُخَزِّنَهَا. فَتَأَكَّدُوا أَنَّ الْقُنْدُسَ بَادِي لَمْ يَكُنْ يَمْلِكُ وَقْتًا لِلْغَوِ الْفَارِغِ! لِذَا وَاصِلَ بِنَاءِ السَّدِّ. لَمْ يَكُنْ يُشَبِّهُ السَّدَّ إِلَى حَدِّ كَبِيرٍ فِي الْبِدَايَةِ، وَشَمَخَ بَعْضُ زُورٍ بَادِي بِأُتُوفِهِمْ فِي اسْتِهْزَاءٍ عِنْدَمَا رَأَوْهُ لِلْمَرَّةِ الْأُولَى؛ فَقَدْ سَمِعُوا قِصَصًا عَنْ مَدَى كِفَاةِ بَادِي فِي بِنَاءِ السُّدُودِ، وَتَوَقَّعُوا أَنْ يَرَوْا مَا يُشَبِّهُ مُنْحَدَرًا مُمَهَّدًا مَكْسُورًا بِالْحَشَائِشِ، كَذَلِكَ الَّذِي صَنَعَهُ الْمَزَارِعُ بَرَاوِنَ لِيَحُولَ دُونَ أَنْ يَفِيضَ النَّهْرُ الْكَبِيرُ عَلَى أَرْضِيهِ الْمُنْخَفِضَةِ. فَكَانَ مَا رَأَوْهُ فِي الْمَقَابِلِ هُوَ كَوْمَةٌ هَائِلَةٌ مِنْ جُدُوعِ شَجَرٍ وَعِصِيٍّ لَا تُشَبِّهُ السَّدَّ بِأَيَّةِ حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ.

فَهَتَفَ الْمِنْكُ بِيْلِي قَائِلًا: «هَاهُ! أَظُنُّ أَنَّهُ لَا دَاعِيَ لِأَنْ نَقْلُقَ بِشَأْنِ الْجُدُولِ الضَّاحِكِ وَالْبِرْكَةِ الْبَاسِمَةِ إِذَا كَانَ ذَلِكَ أَفْضَلَ مَا يُمْكِنُ لِبَادِي أَنْ يَأْتِيَ بِهِ. فَمِيَاهُ الْجُدُولِ الضَّاحِكِ سَتَنْقُذُ عِبْرَهُ عَلَى الْفُورِ.»

وَقَدْ سَمِعَهُ بَادِي طَبْعًا، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَقُلْ شَيْئًا، بَلِ اسْتَمَرَّ فِي عَمَلِهِ.

وَوَاصِلَ الْمِنْكُ بِيْلِي حَدِيثَهُ قَائِلًا: «انْظُرُوا كَيْفَ رَصَّ تِلْكَ الْجُدُوعُ! يَبْدُو لِي أَنَّ أَيَّ أَحَدٍ لَدَيْهِ دِرَايَةٌ سَيَشْرَعُ فِي رِصِّهَا بِعَرَضِ الْجُدُولِ الضَّاحِكِ عِوَضًا عَنْ رِصِّهَا بِالطُّولِ. يُمْكِنُنِي بِنَاءُ سَدٍّ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ.»

فَلَمْ يَقُلْ بَادِي شَيْئًا، وَوَاصِلَ عَمَلَهُ.

فَأَرَدَفَ بِيْلِي مُتَبَاهِيًا: «نَعَمْ، يُمْكِنُنِي بِنَاءُ سَدٍّ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ. لَنْ تَتَمَكَّنَ كَوْمَةُ الْجُدُوعِ تِلْكَ مِنْ إِيقَافِ الْمِيَاهِ أَبَدًا.»

فَسَأَلَهُ فَأَرَأَيْتَ الْمُسْكُ جِيرِي: «هَلْ تَشَوُّشَ بَصْرِكَ أَيُّهَا الْمُنْكَ بِيْلِي؟»
فَأَجَابَهُ بِيْلِي حَانِقًا: «بِالطَّبْعِ لَا! لِمَاذَا؟»

فَرَدَّ عَلَيْهِ جِيرِي الَّذِي كَانَ يَتَفَحَّصُ السَّدَّ بِاهْتِمَامٍ كَبِيرٍ قَائِلًا: «لَا شَيْءَ، يَبْدُو لِي فَقَطْ أَنَّكَ لَمْ تَلَاخِظْ أَنَّ الْجَدُولَ الضَّاحِكَ فَاضَ عَلَى ضَفَّتَيْهِ بِالْفِعْلِ فَوْقَ سَدِّ بَادِي.»
فَبَدَتْ بَعْضُ الْحَمَاقَةِ عَلَى بِيْلِي؛ فَقَدْ تَكَوَّنَتْ بِرُكَّةٍ صَغِيرَةٍ فَوْقَ السَّدِّ مِبَاشَرَةً بِالْفِعْلِ، وَكَانَتْ آخِذَةً فِي الْإِتْسَاعِ.

وَلَكِنَّ بَادِي ظَلَّ مُسْتَمِرًّا فِي عَمَلِهِ، دُونَ أَنْ يَقُولَ شَيْئًا؛ فَقَدْ رَاحَ يَخْفِرُ أَمَامَ السَّدِّ آنِذًا، وَأَخَذَ يَحْشُرُ مَا أَتَى بِهِ مِنْ طِينٍ وَحَشَائِشَ بَيْنَ نِهَائِيَاتِ الْجُدُوعِ وَيُسُوبِهَا بِيَدَيْهِ. وَفَعَلَ ذَلِكَ عَلَى امْتِدَادٍ وَاجِهَةِ السَّدِّ وَأَعْلَاهُ أَيْضًا، وَحِينَمَا اسْتَدْعَتِ الْحَاجَةُ. وَمِنْ الْأَكِيدِ أَنَّ ذَلِكَ زَادَ صُعُوبَةَ مُرُورِ الْمَاءِ، وَأَخَذَتِ الْبِرْكَةُ الصَّغِيرَةُ أَعْلَى السَّدِّ تَتَسَّعُ بِمُعَدِّلٍ أَسْرَعَ. وَبَعْدَ فِتْرَةٍ، لَيْسَتْ بِطَوِيلَةٍ، بَلَغَتْ قِمَّةَ السَّدِّ تَقْرِيبًا، الَّتِي كَانَتْ بِالْغَةِ الْإِنْخِفَاضِ فِي الْبِدَايَةِ. ثُمَّ جَلَبَ بَادِي الْمَزِيدَ مِنَ الْعَصِيِّ. وَقَدْ أَصْبَحَ ذَلِكَ أَيْسَرَ الْآنَ؛ إِذْ صَارَ بِإِمْكَانِهِ الدَّفْعُ بِهَا مِنْ حَيْثُ كَانَ يَقْطَعُهَا لِتَطْفُو عَلَى سَطْحِ الْمَاءِ. فَكَانَ يَضَعُهَا فِي مَكَانِهَا عَلَى قِمَّةِ السَّدِّ، ثُمَّ يُهْرَعُ لِيَجْلِبَ الْمَزِيدَ. وَحِينَمَا اسْتَدْعَتِ الْحَاجَةُ، كَانَ يَضَعُ الطِّينَ. بَلْ إِنَّهُ دَحَرَاجَ بَعْضَ الْحَصَى لِكَيْ يُسَاعِدَ عَلَى تَنْثِيَتِ تِلْكَ الْكُتْلَةِ.

فَرَاخَ السَّدُّ يَغْلُو وَيَعْلُو، كَمَا رَاحَتِ الْبِرْكَةُ أَعْلَاهُ تَتَسَّعُ. لَا شَكَّ أَنَّ بِنَاءَ مِثْلِ ذَلِكَ السَّدِّ الْكَبِيرِ اسْتَعْرَقَ أَيَّامًا طَوِيلًا، وَالْكَثِيرَ مِنَ الْعَمَلِ الشَّاقِّ! فَكَانَ سَكَّانُ الْغَابَةِ الْخَضِرَاءِ وَالْمُرُوجِ الْخَضِرَاءِ الصَّغَارُ يَزُورُونَهُ كُلَّ صَبَاحٍ، وَكُلَّ صَبَاحٍ كَانُوا يَجِدُونَ السَّدَّ قَدْ نَمَّا كَثِيرًا أَثْنَاءَ اللَّيْلِ؛ فَقَدْ كَانَ بَادِي يُفْضِلُ الْعَمَلَ أَثْنَاءَ اللَّيْلِ.

وَأَنِذًا، كَانَ الْجَدُولُ الضَّاحِكُ قَدْ تَوَقَّفَ عَنِ الضَّحِكِ، وَفِي الْبِرْكَةِ الْبَاسِمَةِ كَانَ الْمَاءُ يَكْفِي بِالْكَادِ لِبَثِّ الطَّمَأْنِينَةِ فِي أَسْمَاكِ الْمِنْتَوَةِ. وَكَفَّ الْمُنْكَ بِيْلِي عَنِ السُّخْرِيَةِ مِنَ السَّدِّ، وَانْتَابَ جَمِيعَ الْكَائِنَاتِ الصَّغِيرَةِ الَّتِي تَعِيشُ فِي الْجَدُولِ الضَّاحِكِ وَالْبِرْكَةِ الْبَاسِمَةِ قَلْقُ بِالْغِ.

الْحَقُّ أَنَّ بَادِي كَانَ قَدْ نَبَّهَهُمْ إِلَى مَا يَنْوِي فِعْلَهُ، وَوَعَدَهُمْ أَنَّهُ حِينَمَا تَصِلُ بِرُكَّتُهُ إِلَى الْحَجَمِ الْكَافِي، سَتَعُودُ الْمِيَاهُ تَجْرِي فِي الْجَدُولِ الضَّاحِكِ. وَقَدْ حَاوَلُوا تَصْدِيقَهُ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَسْتَطِيعُوا مَنَعَ أَنْفُسِهِمْ مِنَ الشُّعُورِ بِقُدْرِ مِنَ الْخَوْفِ مِنْ أَلَّا يَكُونَ صَادِقًا تَمَامًا؛ فَهُمْ

لَمْ يَكُونُوا يَعْرِفُونَهُ، فَقَدْ كَانَ غَرِيبًا عَنْهُمْ. وَكَانَ فَأَرُ الْمَسْكِ جِيرِي هُوَ الْوَحِيدَ الَّذِي يَتَّقُ
تَمَامَ الثَّقَةِ فِي أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ سَيَكُونُ عَلَى مَا يُرَامُ. رَبَّمَا كَانَ ذَلِكَ لِأَنَّ بَادِي ابْنُ عَمِّهِ، وَلَمْ
يَتَمَالَكْ جِيرِي نَفْسَهُ مِنَ التَّفَاخُرِ بِقَرِيبِ ضَخْمٍ وَذَكِّيٍّ مِثْلِ بَادِي.

وَيَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ أَخَذَ السَّدُّ يَغْلُو، وَالْبِرْكَةُ تَتَسَّعُ. وَذَاتَ صَبَاحٍ سَمِعَ الْجَدُّ ضَفْدَعًا،
عِنْدَمَا كَانَ يَقِفُ وَسَطًا مَا كَانَ فِي السَّابِقِ الْبِرْكَةِ الْبَاسِمَةِ، صَوْتًا جَعَلَ قَلْبُهُ يَقْفِرُ مِنَ
الْفَرَحَةِ. كَانَ صَوْتُ خَرِيرٍ رَاحَ يَتَعَالَى، حَتَّى صَارَ ضِحْكَةً الْجَدُولِ الضَّاحِكِ الْمَرَحَةِ.
وَحِينَئِذٍ عَرَفَ أَنَّ بَادِي قَدْ وَفَّى بوعده وَأَنَّ الْمِيَاهَ سَتَغْمُرُ الْبِرْكَةَ الْبَاسِمَةَ مِنْ جَدِيدٍ.

الفصل السادس

فُضُولُ ابْنِ الْمَزَارِعِ براون

فِي الْيَوْمِ السَّابِقِ عَلَى رُؤْيَةِ الْقُنْدُسِ بَادِي أَنَّ الْبِرْكَهَ صَارَتْ كَبِيرَةً بِمَا يَكْفِي؛ وَمِنْ ثَمَّ سَمَّاهُ لِلْمِيَاهِ بِالتَّدْفُقِ فِي الْجَدُولِ الضَّاحِكِ مَرَّةً أُخْرَى؛ صَادَفَ أَنَّ ابْنَ الْمَزَارِعِ براون قَرَّرَ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى الْبِرْكَهَ الْبَاسِمَةِ لِيَصْطَادَ. وَكَالْمُعْتَادِ كَانَ يُصْفِرُ أَثْنَاءَ نَزُولِهِ مِنْ عَلَى الْمُرُوجِ الْخَضِرَاءِ. فَلَسِبَ مَا دَائِمًا مَا تَتَنَابُهُ الرَّغْبَةُ فِي الصَّفِيرِ عِنْدَمَا يَذْهَبُ لِلصَّيْدِ. سَمِعَهُ الْجَدُّ ضَفَدَ، فَعَاَصَ فِي الْمِيَاهِ الْقَلِيلَةِ الْمُتَبَقِّيَةِ فِي الْبِرْكَهَ الْبَاسِمَةِ وَحَرَكَ الطِّينَ فِي قَاعِ الْبِرْكَهَ حَتَّى لَا يَرَاهُ ابْنُ الْمَزَارِعِ براون.

أَخَذَ صَوْتَ الصَّفِيرِ يَذْنُو أَكْثَرَ فَأَكْثَرَ، ثُمَّ انْقَطَعَ فَجَاءَ؛ فَقَدْ كَانَتْ الْبِرْكَهَ الْبَاسِمَةُ قَدْ صَارَتْ فِي مَجَالِ رُؤْيَةِ ابْنِ الْمَزَارِعِ براون، أَوْ عَلَى وَجْهِ الدَّقَّةِ، مَا كَانَ يَوْمًا بِرْكَهَ بَاسِمَةً. أَمَّا الْآنَ فَلَمْ تَعُدْ هُنَاكَ بِرْكَهَ بَاسِمَةً، فَقَدْ كَانَ الْقَدْرُ الضَّيِّيلُ الْمُتَبَقِّي مِنَ الْبِرْكَهَ أَقْلًا وَأَضْعَفَ مِنْ أَنْ يَبْتَسِمَ. وَكَانَتْ ثَمَّةَ أَكْوَامٍ كَبِيرَةٍ مِنَ الطِّينِ، تَنْمُو مِنْهَا أَعْشَابُ الْبِرْكِ، بَيْنَمَا كَانَتْ أَوْراقُ الرَّنْبِقِ الْأَبْيَضِ مُلْقَاءَ بَائِسَةٍ بِالْقُرْبِ مِنْ بِرْكَهَ الْمَاءِ الْهَزِيلَةِ الْمُتَبَقِّيَةِ. وَحَيْثُ انْحَدَرَتِ الضُّفَافُ وَعَلَتْ، كَانَتْ الثُّقُوبُ الَّتِي حَفِظَهَا فَأَرِ الْمُسْكِ جِيرِي وَالْمِنْكُ بيلي عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ مَكْشُوفَةٍ لِلنَّاطِرِينَ. وَعَلَى أَحَدِ الْجَوَانِبِ كَانَ بَيْتٌ فَأَرِ الْمُسْكِ جِيرِي، قَدْ بَرَزَ بِأَكْمَلِهِ مِنْ سَطْحِ الْمَاءِ.

ظَنَّ ابْنُ الْمَزَارِعِ براون، بِصُورَةٍ أَوْ بِأُخْرَى، أَنَّهُ يَحْلُمُ بِالتَّأَكِيدِ؛ فَهُوَ لَمْ يَسْبِقْ لَهُ أَنْ رَأَى مِثْلَ ذَلِكَ الْمَنْظَرِ قَطُّ، وَلَا حَتَّى لَدَى أَشَدِّ الْأَجْوَاءِ جَفَافًا فِي أَشَدِّ فِتْرَاتِ الصَّيْفِ حَرَارَةً. فَجَالَ بِبَصَرِهِ فِي أَرْجَاءِ الْمَكَانِ. وَبَدَتْ لَهُ الْغَايَةُ الْخَضِرَاءُ كَسَابِقِ عَهْدِهِ بِهَا،

وَكَذَلِكَ الْمُرُوجُ الْخَضِرَاءُ، لَكِنَّ الْجَدُولَ الضَّاحِكُ! مَاذَا أَصَابَ الْجَدُولَ الضَّاحِكُ؟ صَوْتُ
الْجَدُولِ الضَّاحِكِ لَمْ يَبْلُغْ مَسَامِعَهُ، وَهُوَ أَمْرٌ غَيْرُ مُعْتَابَرٍ بِالْمَرَّةِ كَمَا تَعْلَمُونَ. فَالْقَى
صِنَارَتَهُ وَرَكَضَ إِلَى الْجَدُولِ الضَّاحِكِ. فَلَمْ يَجِدْ جَدُولًا. كَلَّا، لَمْ يَجِدْ جَدُولًا؛ وَإِنَّمَا بَعْضُ
بِرَكِ الْمَاءِ تَسِيلٌ فِيمَا بَيْنَهَا قَطْرَاتٌ شَجِيحَةٌ لَا أَكْثَرَ. وَالْأَحْجَارُ الْكَبِيرَةُ الَّتِي طَالَمَا رَأَى
الْمَاءَ يَجْرِي مِنْ فَوْقِهَا صَانِعًا شَلَالَتٍ بَيَضَاءَ صَغِيرَةٍ بَدِيعَةٍ صَارَتْ جَافَةً جَدْبَاءَ. وَفِي
الْبِرَكِ الْهَزِيلَةِ كَانَتْ أَسْمَاكُ الْمِنَّةِ الْمَذْعُورَةُ تَتَفَافَرُ هُنَا وَهَنَا.

حَكَ ابْنُ الْمُزَارِعِ بَرَاوَنَ رَأْسَهُ فِي حَيْرَةٍ، ثُمَّ قَالَ: «لَا أَفْهَمُ، لَا أَفْهَمُ مُطْلَقًا. لَا بُدَّ أَنْ
خَطَبًا مَا أَصَابَ الْيَنَابِيعَ الَّتِي تَمُدُّ الْجَدُولَ الضَّاحِكَ بِالْمِيَاهِ. لَا بُدَّ أَنَّهَا نَضَبَتْ. نَعَمْ، لَا بُدَّ
أَنَّ ذَلِكَ هُوَ مَا حَدَثَ. وَلَكِنِّي لَمْ أَسْمَعْ بِمِثْلِ ذَلِكَ الْأَمْرِ مِنْ قَبْلُ، وَحَقًّا لَا أَفْهَمُ كَيْفَ
يُمْكِنُ أَنْ يَحْدُثَ.» ثُمَّ تَطَلَّعَ إِلَى الْغَابَةِ الْخَضِرَاءِ كَأَنَّ بِإِمْكَانِهِ رُؤْيَا تِلْكَ الْيَنَابِيعِ. طَبْعًا
لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مَا ظَنَّهُ بِأَيِّ حَالٍ، وَإِنَّمَا كَانَ يُقَلِّبُ الْأَمْرَ فِي رَأْسِهِ فَحَسَبُ. ثُمَّ قَالَ بِصَوْتٍ
عَالٍ: «أَعْرِفُ مَا سَوْفَ أَفْعَلُ! سَأَذْهَبُ إِلَى تِلْكَ الْيَنَابِيعِ عَصَرَ الْيَوْمِ وَأَعْرِفُ مَا الْأَمْرُ. وَهِيَ
بَعِيدَةٌ عَلَى الْجَانِبِ الْمُقَابِلِ مِنَ الْغَابَةِ تَقْرِيبًا، وَأَسْهَلُ طَرِيقَ لِبُلُوغِهَا سَيَكُونُ بِالْإِنْطِلَاقِ
مِنَ الْمَنْزِلِ وَعُيُورِ الْمَرْعَى الْقَدِيمِ وَصُولاً إِلَى طَرَفِ الْجَبَلِ خَلْفَ الْغَابَةِ الْخَضِرَاءِ. فَإِذَا
حَاوَلْتُ السَّيْرَ بِمَحَاذَةِ الْجَدُولِ الضَّاحِكِ الْآنَ، فَسَيَسْتَعْرِقُ وَصُولِي وَقْتًا طَوِيلًا؛ لِأَنَّهُ كَثِيرُ
الْمُنْعَطَفَاتِ وَالْمُنْحَنِيَّاتِ. هَذَا إِلَى جَانِبِ أَنَّهُ أَمْرٌ شاقٌّ لِلْغَايَةِ.»

وَبَعْدَهَا رَجَعَ ابْنُ الْمُزَارِعِ بَرَاوَنَ وَالتَّقَطَّ صِنَارَتُهُ. ثُمَّ انْطَلَقَ إِلَى الْمَنْزِلِ عَبْرَ الْمُرُوجِ
الْخَضِرَاءِ، وَلِأَوَّلِ مَرَّةٍ لَمْ يَكُنْ يَصْفَرُّ؛ فَقَدْ كَانَ مَشْغُولَ الْبَالِ. بَلْ إِنَّهُ كَانَ مَشْغُولَ الْبَالِ إِلَى
حَدِّ أَنَّهُ لَمْ يَرَ الظَّرِبَانَ جِيْمِي وَكَادَ يَدُوسُ عَلَيْهِ، ثُمَّ قَفَزَ بِفَرْعٍ وَجَرَى؛ لِأَنَّهُ دُونَ بُنْدُقِيَّتِهِ
كَانَ يَخْشَى الظَّرِبَانَ جِيْمِي تَمَامًا كَمَا يَخْشَاهُ جِيْمِي عِنْدَمَا تَكُونُ الْبُنْدُقِيَّةُ فِي حَوْزَتِهِ.
فَابْتَسَمَ جِيْمِي ابْتِسَامَةً عَرِيضَةً وَتَابَعَ مَا كَانَ يَفْعَلُهُ. فَطَالَمَا أَمْتَعَ جِيْمِي أَنْ يَرَى
النَّاسَ تَهْرَبُ مِنْهُ، لَا سِوَمَا الْأَشْخَاصِ الَّذِينَ يَفُوقُونَهُ حَجْمًا بِكَثِيرٍ؛ فَقَدْ كَانُوا يَبْدُونَ
شَدِيدِي السَّخَافَةِ.

وَبَيْنَمَا تَدَخَّرَجَ عَلَى صَخْرَةٍ بَحْثًا عَنْ خَنَافَسٍ سَمِينَةٍ، غَمَغَمَ قَائِلًا: «كُنْتُ أَظُنُّهُمْ
سَيَكُونُونَ قَدْ عَرَفُوا الْآنَ أَنَّهُمْ إِذَا لَمْ يُضَاقِبُونِي، فَلَنْ أَضَاقِبَهُمْ. يَبْدُو أَنَّ النَّاسَ لَا تَفْهَمُونِي
أَبَدًا.»

الفصل السابع

مُفَاجَأَةٌ جَدِيدَةٌ لِابْنِ الْمَزَارِعِ بَرَاوِنَ

عَبَّرَ ابْنُ الْمَزَارِعِ بَرَاوِنَ الْمَرْعَى الْقَدِيمَ وَصُولًا إِلَى سَفْحِ الْجَبَلِ خَلْفَ الْغَابَةِ الْخَضِرَاءِ، وَأَمَامَهُ خَفَّ كَلْبُ الصَّيْدِ بَاوَزِرِ الْخُطَى، مُتَشَمِّمًا هُنَا وَهُنَاكَ بَحْنًا عَنْ أَثَارِ التَّغْلِبِ رِيْدِي أَوْ الْجِدَّةِ ثَعْلَبَةِ. وَلَكِنَّهُ لَمْ يَجِدْهُمَا بِالطَّبْعِ؛ لِأَنَّ أَيًّا مِنْهُمَا لَمْ يَذْهَبْ إِلَى الْمَرْعَى الْقَدِيمِ مُنْذُ زَمَنٍ. وَلَكِنَّهُ وَجَدَ الْأَزْنَبَ الرَّمَادِيَّ الْعُجُوزَ ثَامِرِ، الَّذِي أَوْقَعَ الْأَزْنَبَ بِيْتَرِ فِي مَتَاعِبِ حِمَّةٍ ذَاتِ مَرَّةٍ، فَأَفْرَزَهُ بِشِدَّةٍ حَتَّى إِنَّهُ لَمْ يَنْظُرْ أَمَامَهُ وَكَادَ يَصْطَدِمُ بِابْنِ الْمَزَارِعِ بَرَاوِنَ مُبَاشَرَةً.

فَهْتَفَ ابْنُ الْمَزَارِعِ بَرَاوِنَ: «مَرْحَبًا يَا ذَا الذَّيْلِ الْقُطْنِيَّ الْعُجُوزَ!» وَهُوَ مَا زَادَ الْعُجُوزَ فَرْعًا حَتَّى إِنَّهُ مَرَقَ أَمَامَ بَيْتِهِ الْمَصْنُوعِ مِنَ الْكُرُومِ الشَّائِكَةِ دُونَ أَنْ يَرَاهُ. وَاصَلَ ابْنُ الْمَزَارِعِ بَرَاوِنَ طَرِيقَهُ، ضَاحِكًا مِمَّا أَصَابَ ثَامِرِ الْعُجُوزَ مِنْ فَرْعٍ. وَحِينَئِذٍ بَلَغَ الْيُنَابِيعَ الَّتِي تَأْتِي مِنْهَا الْمِيَاهُ حَيْثُ يَبْدَأُ الْجَدُولُ الضَّاحِكُ. كَانَ يَتَوَقَّعُ أَنْ يَجِدَهَا جَافَةً؛ إِذْ كَانَتْ الْبِرْكَةُ الْبَاسِمَةُ بِالْأَسْفَلِ عِنْدَ الْمُرُوجِ الْخَضِرَاءِ شَبَهَ جَافَةً، وَكَذَلِكَ كَانَ الْجَدُولُ الضَّاحِكُ، فَافْتَرَضَ أَنَّ السَّبَبَ الْأَكِيدَ وَرَاءَ ذَلِكَ هُوَ أَنَّ الْيُنَابِيعَ الَّتِي يَبْدَأُ مِنْهَا الْجَدُولُ الضَّاحِكُ لَمْ تَعُدْ تَتَدَفَّقُ.

وَلَكِنَّهَا كَانَتْ تَتَدَفَّقُ! فَقَدْ انْبَثَقَتِ الْمِيَاهُ الْبَارِدَةُ الصَّافِيَةُ مِنَ الْأَرْضِ مُحْدِثَةً خَرِيرًا كَعَادَتِهَا دَائِمًا، وَتَدَفَّقَتْ إِلَى أَسْفَلِ عِنْدَ الْغَابَةِ الْخَضِرَاءِ فِي مَجْرَى مَائِيٍّ صَغِيرٍ رَاحَ يَنْسُجُ وَيَنْسُجُ أَنْتَاءَ تَدَفُّقِهِ حَتَّى صَارَ الْجَدُولَ الضَّاحِكًا. فَخَلَعَ ابْنُ الْمَزَارِعِ بَرَاوِنَ قُبْعَهُ الْقَدِيمَةَ

الْمُهْتَرِثَةَ الْمَصْنُوعَةَ مِنَ الْقَشِّ وَنَظَرَ، مُقْطَبًا جَبِينَهُ، إِلَى الْمَاءِ الْمَتَدَفِّقِ كَأَنَّمَا ظَنَّ أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْمُفْتَرَضِ أَنْ يَتَدَفَّقَ هُنَاكَ.

طَبْعًا لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ فَقَطْ مَا يَطْنُهُ؛ فَالْحَقِيقَةُ أَنَّهُ كَانَ فِي حَيْرَةٍ شَدِيدَةٍ؛ فَهِيَ الْيَنَابِيعُ مُتَدَفِّقَةٌ كَعَادَتِهَا دَائِمًا، وَهِيَ هُوَ الْمَجْرَى الْمَائِي الصَّغِيرُ يَتَدَفَّقُ فِي اتِّجَاهِ الْغَابَةِ الْخَضِرَاءِ مُحْدِثًا قَرَقَرَةً سُرْعَانَ مَا سَتَحَوَّلُ إِلَى ضِحْكَةٍ، كَالْمُعْتَادِ دَائِمًا. وَرَغَمَ ذَلِكَ فَبِالْأَسْفَلِ عِنْدَ الْمُرُوجِ الْخَضِرَاءِ فِي الْجِهَةِ الْمُقَابِلَةِ مِنَ الْغَابَةِ الْخَضِرَاءِ لَمْ يَعْذُ هُنَاكَ جَدُولٌ ضَاكِ وَلَا بَرْكَةٌ بِاسْمَةٍ. فَشَعَرَ كَأَنَّمَا عَلَيْهِ أَنْ يَقْرُصَ نَفْسَهُ كَيْ يَتَأَكَّدَ مِنْ أَنَّهُ مُسْتَنِقِظٌ وَلَا يَحْلُمُ.

وَقَالَ بِصَوْتٍ عَالٍ: «لَا أَفْهَمُ. لَا أَفْهَمُ مُطْلَقًا، وَلَكِنِّي سَأَعْرِفُ. كُلُّ شَيْءٍ فِي الْعَالَمِ يَحْدُثُ لِسَبَبٍ، وَعِنْدَمَا يَجْهَلُ الْمَرْءُ أَمْرًا، لَا بُدَّ أَنْ يَجْتَهِدَ لِيَعْرِفَ كُلَّ شَيْءٍ عَنْهُ. وَسَأَعْرِفُ مَا حَدَثَ لِلْجَدُولِ الضَّاكِ، حَتَّى إِنْ اسْتَعْرَقَ الْأَمْرُ عَامًا!»

ثُمَّ أَخَذَ يَتَتَبَعُ الْمَجْرَى الْمَائِي الصَّغِيرَ الَّذِي تَدَفَّقَ مُقَرِّقًا إِلَى الْغَابَةِ الْخَضِرَاءِ. كَانَ قَدْ تَتَبَعَ ذَلِكَ الْمَجْرَى أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ، وَوَجَدَهُ الْآنَ كَعَهْدِهِ بِهِ تَمَامًا؛ فَكَلَّمَا جَرَى، اتَّسَعَ حَتَّى صَارَ الْجَدُولُ الضَّاكِ الْمَعْهُودَ لَهُ فِي النِّهَايَةِ، الَّذِي يَتَدَفَّقُ بِمَرَجٍ فَوْقَ الصُّحُورِ لِيَكُونَ الْبَرْكُ الْعَمِيقَةُ الَّتِي يَطِيبُ لِأَسْمَاكِ السَّلْمُونِ الْمُرْقُطِ الْإِحْتِبَاءَ فِيهَا. وَأَخِيرًا بَلَغَ أَطْرَافَ تَجْوِيفِ صَغِيرٍ مُنْبَسِطٍ فِي قَلْبِ الْغَابَةِ الْخَضِرَاءِ. كَانَ يَعْرِفُ مَا بِالْجَدُولِ الضَّاكِ مِنْ أَحَادِيدٍ عَمِيقَةٍ رَائِعَةٍ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ، وَكَمْ يَطِيبُ لِأَسْمَاكِ السَّلْمُونِ الْمُرْقُطِ الْكَبِيرَةِ أَنْ تَرْقُدَ فِيهَا؛ لِعُمْقِهَا وَبَرُودَتِهَا! كَانَ يُفَكِّرُ بِتِلْكَ الْأَسْمَاكِ الْآنَ وَيَتَمَنَّى لَوْ أَنَّهُ جَلَبَ مَعَهُ صِنَارَتَهُ. وَمَرَّ بِصُغُوبَةٍ عَبْرَ أَجْمَةٍ مِنْ أَشْجَارِ جَارِ الْمَاءِ، ثُمَّ تَوَقَّفَ ابْنُ الْمَزَارِعِ بَرَاوِنَ فَجَاءَةً وَشَهَقَ بِقُوَّةٍ! فَقَدْ اضْطُرَّ إِلَى التَّوَقُّفِ؛ إِذْ وَجَدَ أَمَامَهُ مُبَاشَرَةً بِرَكَّةً!

فَرَكَ عَيْنَيْهِ ثُمَّ أَعَادَ النَّظَرَ. ثُمَّ انْحَنَى وَوَضَعَ يَدَهُ فِي الْمَاءِ لِيَعْرِفَ هَلْ كَانَ حَقِيقِيًّا. وَلَمْ يَكُنْ ثَمَّةَ مَجَالٍ شَكٍّ. كَانَ مَاءٌ حَقِيقِيًّا، وَبَرْكَةٌ حَقِيقِيَّةٌ فِي مَوْضِعٍ لَمْ يَكُنْ فِيهِ بَرْكَةٌ قَطْ. وَقَدْ سَادَ السُّكُونُ أَرْجَاءَ جَوَافِ الْغَابَةِ الْخَضِرَاءِ. وَطَالَمَا سَادَ السُّكُونُ فِي أَرْجَاءِ تِلْكَ الْبُقْعَةِ، وَلَكِنَّهَا بَدَتْ أَكْثَرَ سُكُونًا مِنَ الْمُعْتَادِ بَيْنَمَا كَانَ يَسِيرُ حَوْلَ ضِفَافِ تِلْكَ الْبَرْكَةِ الْغَرِيبَةِ. شَعَرَ كَأَنَّهُ يَحْلُمُ، وَتَسَاءَلَ فِي نَفْسِهِ عَمَّا إِذَا كَانَ سَيَصْحُو عَمَّا قَرِيبٍ وَيَكْتَشِفُ أَنَّ

مُفَاجَأَةٌ جَدِيدَةٌ لِابْنِ الْمُزَارِعِ بَرَاوِنَ

كُلَّ ذَلِكَ خَيَالٌ. وَلَكِنَّ ذَلِكَ لَمْ يَحْدُثْ، فَظَلَّ يَسِيرُ حَتَّى بَلَغَ سَدًّا رَائِعًا مِنْ جُدُوعِ الْأَشْجَارِ
وَالْعِصِيِّ وَالطَّيْنِ. وَكَانَ الْمَاءُ يَتَدَفَّقُ فَوْقَهُ، وَتَنَاهَى إِلَى مَسَامِعِهِ صَوْتُ الْجَدُولِ الضَّاحِكِ
بِالْأَسْفَلِ فِي الْغَابَةِ الْخَضِرَاءِ، وَقَدْ بَدَأَ لِتَوَّهُ يَضْحَكُ مِنْ جَدِيدٍ. فَجَلَسَ ابْنُ الْمُزَارِعِ بَرَاوِنَ
وَاضِعًا مِرْفَقَيْهِ عَلَى رُكْبَتَيْهِ وَارْتَكَزَ بِذَقْنِهِ عَلَى كَفِّهِ، وَقَدْ بَلَغَتْ مِنْهُ الدَّهْشَةُ مَبْلَغًا أَعْجَزَهُ
حَتَّى عَنِ التَّفَكِيرِ.

الفصل الثامن

مُغَامَرَةُ الْأَرْزَبِ بِيْتَرِ الْمَائِيَّةِ

جَلَسَ ابْنُ الْمُزَارِعِ براونَ وَاضِعًا ذَقْنَهُ بَيْنَ كَفَّيْهِ، وَمُحَدِّقًا النَّظَرَ فِي الْبَرَكَةِ الْجَدِيدَةِ الَّتِي ظَهَرَتْ فِي الْغَابَةِ الْحَضْرَاءِ وَفِي السَّدِّ الَّذِي تَسَبَّبَ فِي تَكْوِينِهَا؛ فَقَدْ أَصَابَهُ ذَلِكَ السَّدُّ بِالْحَيْرَةِ. مَنْ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ قَدْ بَنَاهُ؟ وَلِمَ؟ وَلِمَ لَمْ يَسْمَعْ صَوْتَ تَقْطِيعِ الْخَشَبِ؟ وَالْقَى نَظْرَةً لَا مُبَالِيَّةَ عَلَى مَا تَبَقَّى مِنْ جَذَعِ شَجَرَةٍ بَعْدَ تَقْطِيعِهِ، ثُمَّ تَقَطَّبَ جَبِينُهُ إِثْرَ نَظَرَةِ أَكْثَرِ حَيْرَةٍ؛ فَقَدْ بَدَأَ تَمَامًا كَأَنَّ أَسْنَانًا قَطَعَتْ تِلْكَ الشَّجَرَةَ لَا فَأْسًا. فَظَلَّ ابْنُ الْمُزَارِعِ براونَ يُحَدِّقُ النَّظَرَ، فَاعْرًا فَاهُ فِي دَهْشَةٍ. فَكَانَ مَنْظَرُهُ مُضْحِكًا جِدًّا حَتَّى إِنَّ الْأَرْزَبَ بِيْتَرَ، الَّذِي كَانَ مُحْتَبِّبًا أَسْفَلَ كَوْمَةٍ مِنَ الْأَغْصَانِ الْمُتَشَابِكَةِ الْقَدِيمَةِ بِالْقُرْبِ مِنْهُ، كَادَ يَنْفَجِرُ ضَاحِكًا.

وَلَكِنَّ بِيْتَرَ لَمْ يَضْحَكْ. كَلَّا، لَمْ يَضْحَكْ؛ فَفِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ تَحْدِيدًا طَرَأَ أَمْرٌ؛ فَقَدْ سَمِعَ صَوْتًا مِنْ وَرَائِهِ مُبَاشَرَةً، عِنْدَ طَرَفِ كَوْمَةِ الْأَغْصَانِ الْمُتَشَابِكَةِ الْقَدِيمَةِ، فَاَنْتَصَبَ شَعْرُهُ خَوْفًا.

«هَآؤُ هَآؤُ هَآؤُ!» بَدَأَ لِبِيْتَرَ كَأَنَّ ذَلِكَ الصَّوْتَ الرَّهِيْبَ يُدَوِّي دَاخِلَ أُذُنَيْهِ. وَقَدْ أَخَافَهُ أَيْمًا خَوْفٍ حَتَّى إِنَّهُ اضْطُرَّ إِلَى الْقَفْزِ. لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِ وَقْتُ لِلتَّفَكُّيرِ. فَفَقَزَ مِنْ تَحْتِ كَوْمَةِ الْأَغْصَانِ وَطَبْعًا صَارَ ظَاهِرًا لِلْعَيَانِ. وَمَا إِنَّ قَفْزَ حَتَّى أَتَى صَوْتَ نُبَاحِ عَالٍ مِنْ خَلْفِهِ مَرَّةً أُخْرَى. بِالطَّبَعِ كَانَ ذَلِكَ صَوْتَ كَلْبِ الصَّيْدِ باوزر. فَقَدْ كَانَ باوزر يَتَقَفَّى أَثْرَ سَيِّدِهِ، وَلَكِنْ بِمَا أَنَّهُ دَائِمًا مَا يَتَوَقَّفُ لِيَتَشَمَّمَ كُلَّ مَا يَمُرُّ بِهِ، فَقَدْ كَانَ وَرَاءَهُ بِمَسَافَةٍ. وَعِنْدَمَا بَلَغَ كَوْمَةَ الْأَغْصَانِ الْمُتَشَابِكَةِ الَّتِي كَانَ بِيْتَرَ مُحْتَبِّبًا تَحْتَهَا تَشَمَّمَهَا، وَبِالطَّبَعِ تَعَرَّفَ رَائِحَةَ بِيْتَرَ عَلَى الْفُورِ.

كَانَ بِيْتَرُ قَدْ قَفَزَ عَلَى حَيْنِ غِرَّةٍ، حَتَّى إِنَّهُ نَزَلَ عَلَى أَحَدِ جَانِبَيْ السَّدِّ بِالضَّبْطِ. وَعِنْدَمَا نَبَحَ بَاوَزَرُ ثَانِيَةً بِصَوْتِهِ الرَّهِيْبِ اشْتَدَّ خَوْفُهُ أَكْثَرَ، فَقَفَزَ فَوْقَ السَّدِّ نَفْسِهِ. فَلَمْ يَعْذُ أَمَامَهُ حِينِيذٍ سِوَى أَنْ يُعْبِرَهُ، وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ هُوَ السَّبِيلَ الْأَمْتَلُ. كَلَّا، لَمْ يَكُنِ السَّبِيلَ الْأَمْتَلُ؛ فَقَدْ كَانَ السَّدُّ عِبَارَةً عَنْ كُتْلَةٍ مِنَ الْعِصِيِّ الْمُتَشَابِكَةِ. فَكَانَ فِي مَقْدُورِ السَّنَجَابِ جَاكِ السَّعِيدِ أَوْ السَّنَجَابِ الْأَحْمَرِ ثَرثارٌ أَوْ السَّنَجَابِ الْبُرِّيِّ الْمُخَطَّطِ أَنْ يَجْتَازُوهُ بِمُنْتَهَى السُّهُولَةِ. وَلَكِنَّ الْأَرْزَبَ بِيْتَرُ لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِ مَخَالِبٌ صَغِيرَةٌ حَادَّةٌ تُمْكِّنُهُ مِنَ التَّشَبُّثِ بِالْجُدُوعِ وَالْعِصِيِّ، فَوَجَدَ نَفْسَهُ فِي وَرْطَةٍ عَلَى الْفُورِ. فَرَّاحَ يَنْزَلِقُ بَيْنَ الْعِصِيِّ، ثُمَّ يَصْعَدُ، ثُمَّ يَنْزَلِقُ مُجَدِّدًا، وَأَثْنَاءَ مُحَاوَلَتِهِ أَنْ يَقْفِزَ قَفْزَةً طَوِيلَةً، فَقَدْ ائْتَرَانَهُ وَسَقَطَ فِي الْمَاءِ رَأْسًا عَلَى عَقِبٍ!

مُسْكِينُ بِيْتَرُ! ظَنَّ نَفْسَهُ قَدْ قَضَى تِلْكَ الْمَرَّةَ. فَقَدْ كَانَ يُمَكِّنُهُ السَّبَاحَةُ، وَلَكِنَّهُ لَيْسَ سَبَاحًا مَاهِرًا وَهُوَ لَا يُحِبُّ الْمَاءَ. وَلَمْ يَكُنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَغُوصَ بَعِيدًا عَنِ الْأَنْظَارِ مِثْلَ فَارِ الْمُسْكِ جِيرِي أَوْ الْمِنْكَ بِيْلِي. فَلَيْسَ فِي مَقْدُورِهِ سِوَى تَحْرِيكِ قَدَمَيْهِ بِأَقْصَى سُرْعَةٍ. كَانَ الْمَاءُ قَدْ دَخَلَ مِنْ أَنْفِهِ وَنَزَلَ فِي حَلْقِهِ حَتَّى غُصَّ حَلْقُهُ، وَكَانَ وَاقِعًا طَوَالَ الْوَقْتِ أَنَّ كَلْبَ الصَّيْدِ بَاوَزَرَ سَيَقْفِزُ حَلْقَهُ وَيُمْسِكُ بِهِ. وَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ، فَسَيَنْتَظِرُهُ ابْنُ الْمَزَارِعِ بَرَاوَنَ بِبَسَاطَةٍ حَتَّى يَصِلَ إِلَى الْبَرِّ ثُمَّ يُمْسِكُ بِهِ.

وَلَكِنَّ ابْنَ الْمَزَارِعِ بَرَاوَنَ لَمْ يَفْعَلْ شَيْئًا مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ، وَإِنَّمَا صَاحَ بِبَاوَزَرَ أَمْرًا إِيَّاهُ بِالِانْتِعَادِ. لَمْ يَكُنْ بَاوَزَرَ يَرْغَبُ فِي الْمَجِيءِ، وَلَكِنَّهُ تَعَلَّمَ الطَّاعَةَ مِنْذُ أَمَدٍ بَعِيدٍ، فَسَارَ مُتَبَاطِئًا إِلَى حَيْثُ جَلَسَ سَيِّدُهُ.

فَقَالَ لَهُ سَيِّدُهُ: «تَعْلَمُ أَنَّ مِنَ الظُّلْمِ أَنْ نَحَاوِلَ الْإِمْسَاكَ بِبِيْتَرِ الْآنَ يَا صَدِيقِي الْعَجُوزَ. سَيَكُونُ ذَلِكَ ظُلْمًا كَبِيرًا، وَنَحْنُ لَا نُرِيدُ أَنْ نَأْتِيَ بِظُلْمٍ أَبَدًا، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟» رُبَّمَا لَمْ يُؤَافِقْهُ بَاوَزَرَ الرَّأْيَ، وَلَكِنَّهُ هَزَّ ذَيْلَهُ كَأَنَّمَا وَافَقَهُ، وَجَلَسَ إِلَى جَانِبِهِ لِيُرَاقِبَ بِيْتَرَ أَثْنَاءَ سَبَاحَتِهِ. بَدَأَ لِبِيْتَرِ كَأَنَّهُ لَنْ يَبْلُغَ الْبَرَّ أَبَدًا أَبَدًا، وَإِنْ كَانَ فِي الْحَقِيقَةِ قَدْ سَبَحَ مَسَافَةً قَصِيرَةً جَدًّا. وَعِنْدَمَا خَرَجَ مِنَ الْمَاءِ أَخِيرًا، كَانَ يَبْدُو أَرْزَبًا تَعَسًا. فَلَمْ يَضِعْ وَقْتًا، وَإِنَّمَا انْطَلَقَ إِلَى بَيْتِهِ مُطْلَقًا سَاقِيَهُ لِلرَّيْحِ. فَاكْتَفَى ابْنُ الْمَزَارِعِ بَرَاوَنَ وَكَلْبَ الصَّيْدِ بَاوَزَرَ بِالضَّحِكِ وَلَمْ يُحَاوِلْ الْإِمْسَاكَ بِهِ مُطْلَقًا.

فَهْتَفَ طَائِرُ السَّنْدِيَانِ سَامِي، الَّذِي شَاهَدَ كُلَّ مَا حَدَثَ مِنْ عَلَى شَجَرَةِ صَنْوَبِرٍ: «عَجَبًا! عَجَبًا! يَبْدُو إِذَنْ أَنَّ ابْنَ الْمَزَارِعِ بَرَاوَنَ لَيْسَ شَرِيرًا تَمَامًا.»

الفصل التاسع

رَسْمُ خُطَّةِ الْبَيْتِ

جَلَسَ الْقُنْدُسُ بَادِي عَلَى السَّدِّ الَّذِي بَنَاهُ وَقَدْ لَاحَ السُّرُورُ فِي عَيْنَيْهِ لَدَى نَظَرِهِ إِلَى بَرَكَةِ الْمَاءِ الْبَرَّاقَةِ الَّتِي صَنَعَهَا، وَقَدْ أَحَاطَتْ بِحَافَتَيْهَا أَشْجَارُ الْعَابَةِ الْخَضِرَاءِ الْعَالِيَةِ؛ فَكَانَتْ بِالْغَةِ الْجَمَالِ وَالسُّكُونِ وَالْعُزْلَةِ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهَا قَدْ تَبَدُّو مُنْعَزَلَةً لِأَيِّ أَحَدٍ تَقْرِيْبًا عَدَا الْقُنْدُسُ بَادِي. وَلَكِنَّ بَادِي لَا يَشْعُرُ بِالْعُزْلَةِ أَبَدًا. فَرَفَاقَهُ هُمُ الْأَشْجَارُ وَالزُّهُورُ وَالنَّبَاتَاتُ الصَّغِيرَةُ كَافَّةً.

وَكَانَ السُّكُونُ يَعْظُمُ الْمَكَانَ؛ سُكُونٌ بَالِغٌ فِي الْحَقِيقَةِ. وَمِنْ نَاحِيَةِ لَاحَ بَرِيقٍ وَرِدِيٍّ جَمِيلٍ عَلَى صَفْحَةِ الْمَاءِ. كَانَ ذَلِكَ انْعِكَاسُ قُرْصِ الشَّمْسِ الْأَحْمَرِ الْمُسْتَدِيرِ الْمَرِحِ. لَمْ يَكُنْ بِإِمْكَانِ بَادِي رُؤْيَاهُ بِسَبَبِ الْأَشْجَارِ الْعَالِيَةِ، وَلَكِنَّهُ كَانَ عَلَى عِلْمٍ تَامٍّ بِمَا تَفْعَلُهُ الشَّمْسُ. كَانَتْ تَأْوِي إِلَى فِرَاشِهَا خَلْفَ التَّلَالِ الْأَرْجَوَانِيَّةِ. وَسُرْعَانَ مَا سَتَظْهَرُ لَهُ النُّجُومُ الصَّغِيرَةُ الْمُتَلَالِئَةُ. كَانَ يُحِبُّ تِلْكَ النُّجُومَ الصَّغِيرَةَ وَدَائِمًا مَا يَتَرَقَّبُ ظُهُورَ تَبَاشِيرِهَا. نَعَمْ؛ كَانَ الْقُنْدُسُ بَادِي يَشْعُرُ بِسَعَادَةٍ غَامِرَةٍ. وَكَادَتْ سَعَادَتُهُ تَكْتَمِلُ لَوْلَا شَيْءٌ وَاحِدٌ: أَنَّ ابْنَ الْمَزَارِعِ بَرَاوَنَ اكْتَشَفَ سَدَّهُ وَبَرَكَّتْهُ عَصَرُ ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَلَمْ يَكُنْ بَادِي مُتَأكِّدًا تَمَامًا مِمَّا قَدْ يَفْعَلُهُ ابْنُ الْمَزَارِعِ بَرَاوَنَ. فَقَدْ اخْتَبَأَ جَيِّدًا أَثْنَاءَ وُجُودِ ابْنِ الْمَزَارِعِ بَرَاوَنَ، وَكَانَ شَبَهُ وَاثِقٍ مِنْ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ مَنْ بَنَى السَّدَّ. وَلَكِنَّ لِهَذَا السَّبَبِ، رَبُّمَا يُحَاوِلُ تَقْصِي الْأَمْرِ، وَهُوَ مَا يَسْتَلْزِمُ أَنْ يَكُونَ بَادِي دَائِمًا الْيَقِظَةَ.

وَقَالَ بَادِي لِنَفْسِهِ: «وَمَا جَدَوَى الْقَلَقِ بِشَأْنِ مَتَاعِبٍ لَمْ تَأْتِ بَعْدُ، وَرَبُّمَا لَا تَأْتِي أَبَدًا؟! سَيَكُونُ ثَمَّةَ وَقْتُ كَافٍ لِلْقَلَقِ عِنْدَمَا تَأْتِي»، وَهُوَ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ بَادِي يَنْحَلِّ بِقَدْرِ

كَبِيرٍ مِنْ رَجَاحَةِ الْعَقْلِ دَاخِلَ رَأْسِهِ الْبُنْيَى الصَّغِيرِ. ثُمَّ أَرْدَفَ قَائِلًا لِنَفْسِهِ: «وَالآنَ عَلَيَّ أَنْ أَسْتَعِدَّ لِمَجِيءِ الشَّتَاءِ، وَهُوَ مَا يَتَطَلَّبُ عَمَلًا كَثِيرًا. حَسَنًا، يَجِبُ أَنْ أَبْنِيَ بَيْتًا كَبِيرًا مَتِينًا دَافِئًا، يُوقِّرُ لِي الدَّفْعَ وَالْأَمَانَ عِنْدَمَا تَتَجَمَّدُ بَرَكَّتِي. وَلَا بُدَّ أَنْ أَجْمَعَ خَزِينًا مِنَ الطَّعَامِ، يَكْفِينِي حَتَّى تُقْبَلَ الرِّيَّاحُ الْجَنُوبِيَّةُ الرَّقِيقَةُ تَمْهِيدًا لِمَجِيءِ الرَّبِيعِ الْبَدِيعِ. يَا إِلَهِي، لَا وَقْتُ لَدَيَّ أَضْيَعُهُ فِي الْجُلُوسِ هُنَا شَارِدًا، بَيْنَمَا لَدَيَّ الْكَثِيرُ مِنَ الْعَمَلِ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ أَقُومَ بِهِ!»

ثُمَّ انْزَلَقَ بَادِي فِي الْمَاءِ وَسَبَحَ فِي أَرْجَاءِ بَرَكَّتِهِ لِيَتَأَكَّدَ مِنَ الْمَوْضِعِ الْأَمْتَلِ لِبِنَاءِ بَيْتِهِ؛ فَإِنَّ إِقَامَةَ الْمَرْءِ مَنْزِلَهُ فِي الْمَوْضِعِ الْأَمْتَلِ لَأَمْرٌ بَالِغُ الْأَهْمِيَّةِ. بَعْضُ النَّاسِ يَهْمِلُونَ ذَلِكَ الْأَمْرَ إِهْمَالًا شَدِيدًا؛ فَالظَّرِبَانُ جِيمِي، عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ، كَثِيرًا مَا يَقَعُ فِي خَطَأٍ أَنْ يَحْفَرَ بَيْتَهُ (فَهُوَ يَبْنِي تَحْتَ الْأَرْضِ كَمَا تَعْلَمُونَ) فِي مَكَانٍ يُمَكِّنُ لَأَيِّ مِنَ الْمَارَةِ أَنْ يَرَاهُ. رُبَّمَا يُعْزَى ذَلِكَ إِلَى أَنَّ جِيمِي مُسْتَقِيلٌ لِلْعَايَةِ إِلَى حَدِّ أَنَّهُ لَا يَأْبَهُ بِمَعْرِفَةِ النَّاسِ بِمَكَانِ بَيْتِهِ. وَلَكِنَّ الْقُنْدُسَ بَادِي لَيْسَ مُهْمَلًا أَبَدًا؛ فَدَائِمًا مَا يَخْتَارُ الْمَوْضِعَ الْأَمْتَلِ. وَيَتَأَكَّدُ مِنْ أَنَّهُ الْأَفْضَلُ قَبْلَ أَنْ يَبْدَأَ الْبِنَاءَ. فَالآنَ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ تَأَكُّدِهِ مِنَ الْمَوْضِعِ الْمُنَاسِبِ لِبِنَاءِ بَيْتِهِ، فَقَدْ طَافَ بِالْبَرَكَةِ لِيَتَأَكَّدَ ثَانِيَةً. ثُمَّ عِنْدَمَا اقْتَنَعَ تَمَامًا، سَبَحَ إِلَى الْبُقْعَةِ الَّتِي اخْتَارَهَا. فَكَانَتْ حَيْثُ بَلَغَتِ الْمِيَاهُ عُمُقًا كَبِيرًا.

ثُمَّ قَالَ لِنَفْسِهِ: «يَجِبُ أَلَّا يَكُونَ ثَمَّةُ أَدْنَى فُرْصَةٍ فِي أَنْ يَصِيرَ الْجَلِيدُ سَمِيكًا إِلَى حَدِّ أَنْ يَسُدَّ مَدْخَلِي. أَنَا وَاثِقٌ مِنْ أَنَّ ذَلِكَ لَنْ يَحْدُثَ هُنَا. لَا بُدَّ أَنْ أُرْسِيَ قَوَاعِدَ مَتِينَةً وَأَبْنِيَ جُدْرَانًا سَمِيكَةً. وَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ لَدَيَّ الْكَثِيرُ مِنَ الطِّينِ لِأَسْوِيَهَا بِهَا، وَفِي الدَّاخلِ، فَوْقَ سَطْحِ الْمَاءِ، سَيَكُونُ لَدَيَّ غُرْفَةٌ مَرِيحَةٌ دَافِئَةٌ يُمَكِّنُنِي أَنْ أَتَنَامَ فِيهَا مَلَأَ جُفُونِي. هَا هُوَ الْمَكَانُ الْمُنَاسِبُ لِبِنَائِهِ، وَقَدْ حَانَ وَقْتُ الْعَمَلِ.»

وَبِهَذَا سَبَحَ بَادِي إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي قَطَعَ مِنْهُ الْأَشْجَارَ لِبِنَاءِ السَّدِّ، وَقَدْ شَعَرَ بِالرَّاحَةِ، فَقَدْ تَعَلَّمَ مِنْذُ أَمَدٍ بَعِيدٍ أَنَّ السَّبِيلَ الْأَكِيدَ لِلْسَّعَادَةِ هُوَ أَنْ يَشْغَلَ الْمَرْءُ نَفْسَهُ بِالْعَمَلِ.

الفصل العاشر

الشُّرُوعُ فِي بِنَاءِ الْبَيْتِ

أَبْدَى فَأَرِ الْمِسْكِ جِيرِي اهْتِمَامًا كَبِيرًا عِنْدَمَا نَمَى إِلَى عِلْمِهِ أَنَّ الْقُنْدُسَ بَادِي، ابْنُ عَمِّهِ كَمَا تَعْلَمُونَ، سَيَشْرَعُ فِي بِنَاءِ بَيْتٍ. فَجِيرِي نَفْسُهُ يَبْرَعُ فِي بِنَاءِ الْبُيُوتِ، وَقَدْ تَمَلَّكَهُ شَكٌّ كَبِيرٌ فِي قَرَارَةِ نَفْسِهِ فِي أَنْ تُضَاهِيَ قُدْرَةَ بَادِي عَلَى بِنَاءِ بَيْتٍ قُدْرَتُهُ؛ فَبَيَّتُ جِيرِي بِالْأَسْفَلِ فِي الْبُرْكَهَةِ الْبَاسِمَةِ، وَكَانَ يُعِدُّهُ بَيْتًا رَائِعًا حَقًّا، وَيَفْخَرُ بِهِ أَشَدَّ الْفَخْرِ؛ فَقَدْ صَنَعَهُ مِنَ الطِّينِ وَحَشَائِشِ الْمَرْجِ وَبَعْضِ الْأَغْصَانِ مِنْ أَشْجَارِ جَارِ الْمَاءِ وَالصِّفَافِ وَأَعْشَابِ الْبِرَكِ. وَقَدْ أَمْضَى فِيهِ جِيرِي شِتَاءً، وَكَانَ قَدْ اعْتَزَمَ قَضَاءَ شِتَاءٍ آخَرَ فِيهِ بَعْدَ أَنْ يُدْخَلَ عَلَيْهِ بَعْضُ الْإِصْلَاحَاتِ. فَبِمَا أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مُضْطَرًّا لِبِنَاءِ بَيْتٍ جَدِيدٍ، فَإِنَّهُ كَانَ يَمْلِكُ مِنَ الْوَقْتِ مَا يَكْفِيهِ لِمُشَاهَدَةِ عَمَلِ ابْنِ عَمِّهِ بَادِي. فَرُبَّمَا كَانَ يَأْمُلُ أَنْ يَطْلُبَ مِنْهُ بَادِي الْمَشُورَةَ. وَلَكِنَّ بَادِي لَمْ يَطْلُبْهَا. وَكَانَ قَدْ رَأَى بَيْتَ فَأَرِ الْمِسْكِ جِيرِي، وَابْتَسَمَ. وَلَكِنَّهُ بَدَلَ أَقْصَى مَا فِي وَسْعِهِ لِكَيْلَا يَرَى جِيرِي تِلْكَ الْإِبْتِسَامَةَ؛ فَهُوَ لَمْ يَرْعَبْ فِي جَرِحِ مَشَاعِرِ جِيرِي قَطُّ؛ فَقَدْ كَانَ اللَّطْفُ وَالطِّيبُ مِنْ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ. وَمِنْ ثَمَّ فَقَدْ جَلَسَ جِيرِي عَلَى طَرَفِ جَذْعِ شَجَرَةٍ قَدِيمٍ وَرَاحَ يُرَاقِبُ بَادِي أَثْنَاءَ عَمَلِهِ. فِي الْبِدَايَةِ، يَجِبُ إِرْسَاءُ قَوَاعِدِ الْبَيْتِ، الْمَكُونَةِ مِنَ الطِّينِ وَالْحَشَائِشِ الْمُطْعَمِينَ بِعَصِيٍّ تَحْفَظُ تَمَاسُكَهُمَا. كَانَ بَادِي يَحْفَرُ لِيَجْلِبَ الطِّينَ مِنْ قَاعِ بَرْكَتِهِ الْجَدِيدَةِ. وَبِمَا أَنَّهَا جَدِيدَةٌ، فَقَدْ كَانَ بِهَا الْكَثِيرُ مِنَ الْمَرْجِ الْعُشْبِيِّ، وَهُوَ مَا كَانَ بَادِي فِي أَشَدِّ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ؛ فَكَانَ مُؤَاتِيًا جِدًّا. ظَلَّ جِيرِي يُرَاقِبُهُ بِرُهْمَةٍ، ثُمَّ إِنَّهُ — إِذْ كَانَ مُعْتَادًا عَلَى الْعَمَلِ أَيْضًا — شَعَرَ أَنَّ عَلَيْهِ أَنْ يَشْغَلَ نَفْسَهُ بِالْمُسَاعَدَةِ. فَأَخْبَرَ ابْنَ عَمِّهِ الضَّخْمَ، عَلَى اسْتِحْيَاءٍ، أَنَّهُ يَوَدُّ مُشَارَكَتَهُ فِي بِنَاءِ الْبَيْتِ الْجَدِيدِ.

فَأَجَابَهُ بَادِي قَائِلًا: «حَسَنًا، لَا بَأْسَ. يُمَكِّنُكَ أَنْ تَجْلِبَ الطِّينَ بَيْنَمَا أُخْضِرُ أَنَا الْعِصِيَّ وَالْحَشَائِشَ».

فَغَاصَ جِيرِي إِلَى قَاعِ الْبُحَيْرَةِ وَحَفَرَهَا لِيَحْصَلَ عَلَى الطِّينِ وَكَوَّمَهُ عَلَى قَاعِدَةِ الْبَيْتِ مَسْرُورًا. وَكَانَتِ النُّجُومُ الصَّغِيرَةُ تُطِلُّ عَلَيْهِمَا مِثْلًا لِنُورِ أَثْنَاءِ عَمَلِهِمَا. أَخَذَتِ قَاعِدَةُ الْبَيْتِ تَمَنُّدًا أَكْثَرَ وَأَكْثَرَ تَحْتَ سَطْحِ الْمَاءِ، وَقَدْ انْتَابَتْ جِيرِي دَهْشَةً كَبِيرَةً مِنْ حَجْمِهَا؛ فَقَدْ كَانَتْ أَكْثَرَ كَثِيرًا مِنْ قَاعِدَةِ بَيْتِهِ؛ فَقَدْ نَسِيَ كَمْ أَنَّ بَادِي أَضْحَمَ مِنْهُ.

فَكَانَ جِيرِي وَبَادِي يَعْمَلَانِ كُلُّ لَيْلَةٍ، وَيَسْتَرِيحَانِ أَثْنَاءَ النَّهَارِ. وَمِنْ حِينِ لِأَخَرٍ كَانَ الرَّاكُونَ بُوْبِي أَوْ الثُّغْلَبُ رِيْدِي أَوْ الْعُمُ بِيْلِي الْأَبُوسُومُ أَوْ الطَّرْبَانُ جِيْمِي؛ يَأْتِي لِحَافَةِ الْبِرْكَةِ لِمُشَاهَدَةِ مَا يَجْرِي، وَكَانَ الْأَرْنَبُ بِيْتَرِ يَأْتِي كُلُّ لَيْلَةٍ. وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَتِمَكَّنُوا مِنْ رُؤْيَةِ الْكَثِيرِ؛ فَقَدْ كَانَ بَادِي وَجِيرِي يَعْمَلَانِ تَحْتَ الْمَاءِ، كَمَا تَعْلَمُونَ.

وَلَكِنَّ الْأَرْنَبَ بِيْتَرِ رَأَى مَا أَسْعَدَهُ كَثِيرًا فِي النِّهَايَةِ؛ فَهَنَّاكَ، فَوْقَ سَطْحِ الْمَاءِ مُبَاشَرَةً ظَهَرَتْ مَنَصَّةٌ مُبْهِرَةٌ مِنَ الطِّينِ وَالْأَعْشَابِ وَالْعِصِيَّ. وَمَا إِنْ ظَهَرَتْ الْمِنَصَّةُ فَوْقَ سَطْحِ الْمَاءِ حَتَّى شَرَعَ بَادِي فِي رِصِّ عِصِيٍّ كَثِيرَةٍ فَوْقَهَا؛ فَقَدْ كَانَ بَادِي دَقِيقًا لِلْغَايَةِ فِي هَذَا الشَّانِ. فَتِلْكَ كَانَتْ أَرْضِيَّةَ الْغُرْفَةِ الَّتِي انْتَوَى بِنَاءَهَا. وَبَدَأَ يُكَوِّمُ الطِّينَ فِي مُنْتَصَفِهَا تَمَامًا عِنْدَمَا وَجَدَ ذَلِكَ مُلَائِمًا.

ظَلَّ جِيرِي يُفَكِّرُ مُحْتَارًا فِي هَذَا الْأَمْرِ. فَأَيْنَ سَتَكُونُ غُرْفَةُ بَادِي إِنْ ظَلَّ يُكَوِّمُ الطِّينَ هَكَذَا؟ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يُحِبُّ تَوَجُّيَهُ الْأَسْئَلَةَ؛ لِذَا وَاصَلَ مُسَاعَدَةَ بَادِي. فَكَانَ بَادِي يَغُوصُ حَتَّى الْقَاعِ ثُمَّ يَصْعَدُ مُمْسِكًا بِقَدَرٍ يَزِيدُ عَنْ مَلءِ كَفِّهِ مِنَ الطِّينِ، وَضَامًا يَدَيْهِ إِلَى صَدْرِهِ. ثُمَّ يَتَسَلَّقُ الْمِنَصَّةَ وَيَتَهَادَى حَتَّى كَوَّمَةِ الطِّينِ؛ حَيْثُ كَانَ يَضَعُ الطِّينَ ثُمَّ يُسَوِّيهِ، وَيَغُوصُ مُجَدِّدًا إِلَى الْقَاعِ لِيَجْلِبَ الْمَزِيدَ مِنَ الطِّينِ.

فَرَاخَتْ كَوَّمَةُ الطِّينِ تَعْلُو وَتَعْلُو، حَتَّى بَلَغَ ارْتِفَاعُهَا حَوَالِي ٦٠ سَنْتِيْمِترًا. فَقَالَ بَادِي: «حَانَ دَوْرُ بِنَاءِ الْجُدْرَانِ، وَلَا أَظُنُّ أَنَّهُ تَمَّةُ الْكَثِيرِ مِمَّا يُمْكِنُكَ أَنْ تَفْعَلَهُ لِمُسَاعَدَتِي فِيهِ. سَأَشْرَعُ فِي بِنَائِهَا مَسَاءَ الْغَدِ. رُبَّمَا تَوَدُّ أَنْ تَكْتَفِيَ بِمُشَاهَدَتِي أَثْنَاءَ عَمَلِي يَا ابْنَ الْعُمِ جِيرِي».

فَأَجَابَهُ جِيرِي، بَيْنَمَا كَانَ مَا زَالَ يُفَكِّرُ مُحْتَارًا فِي كَوَّمَةِ الطِّينِ الْمَوْضُوعَةِ فِي الْمُنْتَصَفِ: «بِالتَّأَكُّيدِ».

حَيْرَةُ الْأَرْزَبِ بَيْتَرِ وَفَارِ الْمِسْكِ جِيرِي

أَخَذَ فَارُ الْمِسْكِ جِيرِي يَزْدَادُ ثِقَةً مِنْ أَنَّ ابْنَ عَمِّهِ الضَّخَمَ، الْقُنْدُسَ بَادِي، لَا يَعْلَمُ مَا قَدْ يَعْلَمُهُ جِيرِي عَنْ بِنَاءِ الْبُيُوتِ. وَدَّ جِيرِي أَنْ يُقَدِّمَ إِلَيْهِ بَعْضَ الْاِقْتِرَاحَاتِ لَكِنَّهُ لَمْ يَجْزُؤْ؛ فَقَدْ كَانَ شَدِيدَ الْقَلْقِ مِنْ أَنْ يُضَاقِقَ ابْنَ عَمِّهِ الضَّخَمَ. وَلَكِنَّهُ شَعَرَ أَنَّهُ بِحَاجَةٍ إِلَى الْبُوحِ بِرَأْيِهِ لِأَحَدٍ؛ لِذَا سَبَحَ إِلَى حَيْثُ كَانَ يَرَى الْأَرْزَبَ بَيْتَرُ كُلَّ لَيْلَةٍ تَقْرِيْبًا مِنْذُ بَدَأَ بَادِي عَمَلِيَّةَ الْبِنَاءِ. وَبِالْفِعْلِ كَانَ الْأَرْزَبُ بَيْتَرِ هُنَاكَ، مُنْتَصِبًا فِي جِلْسَتِهِ وَمُحَدِّثًا بَعْضَتَيْنِ كَبِيرَتَيْنِ مُسْتَدِيرَتَيْنِ فِي مَنْصَةِ الطِّينِ وَالْعِصِيِّ الْقَائِمَةِ فِي الْمَاءِ حَيْثُ كَانَ الْقُنْدُسُ بَادِي يَعْمَلُ.

فَسَأَلَهُ جِيرِي: «حَسَنًا يَا بَيْتَرِ، مَا رَأَيْكَ؟»

فَسَأَلَهُ الْأَرْزَبُ بَيْتَرِ بِبَرَاءَةٍ: «وَمَا هَذَا؟ هَلْ هُوَ سَدٌّ جَدِيدٌ؟»

فَأَلْقَى جِيرِي رَأْسَهُ إِلَى الْوَرَاءِ وَرَاحَ يَضْحَكُ وَيَضْحَكُ.

فَنَظَرَ إِلَيْهِ بَيْتَرِ بِرَبِيَّةٍ وَقَالَ: «لَا أَرَى سَبَبًا لِلضَّحْكِ.»

فَأَجَابَهُ جِيرِي مَاسِحًا دُمُوعَ الضَّحْكِ مِنْ عَيْنَيْهِ: «عَجَبًا! ذَلِكَ بَيْتُ أَيُّهَا الْأَحْمَقُ. إِنَّهُ

بَيْتُ بَادِي الْجَدِيدِ.»

فَرَدَّ عَلَيْهِ بَيْتَرِ بِسُرْعَةٍ: «لَسْتُ بِأَحْمَقَ! كَيْفَ كَانَ لِي أَنْ أَعْرِفَ أَنَّ كَوْمَةَ الطِّينِ

وَالْعِصِيِّ تِلْكَ الْغَرَضُ مِنْهَا بِنَاءُ بَيْتٍ؟! فَالْأَكِيدُ أَنَّهُ لَا يَبْدُو بَيْتًا. فَأَيْنَ بَابُهُ؟!»

فَأَجَابَهُ جِيرِي قَائِلًا: «أَصْدَقُكَ الْقَوْلُ؛ إِنِّي عَنْ نَفْسِي لَا أَظُنُّهُ يَرْقَى إِلَى مُسْتَوَى الْبَيْتِ.

إِنَّ لَهُ بَابًا، بَلْ ثَلَاثَةَ أَبْوَابٍ، وَلَكِنْ لَا يُمْكِنُكَ رُؤْيُهَا؛ لِأَنَّهَا تَحْتَ سَطْحِ الْمَاءِ، وَكُلُّ مَنْهَا

يَمْتَدُّ مِنْهُ مَمَرٌ إِلَى أَعْلَى يَخْتَرِقُ مَنْصَةَ الطِّينِ وَالْعِصِيِّ ذَاتَهَا، الَّتِي تُمَثِّلُ قَاعِدَةَ الْبَيْتِ. إِنَّهَا

قَاعِدَةٌ مَتِينَةٌ حَقًّا يَا بَيْتَرِ. وَلَكِنِّي لَا أَفْهَمُ مَا يَقْصِدُ بَادِي بِبِنَائِهِ تِلْكَ الْكَوْمَةَ الْكَبِيرَةَ مِنْ

الطَّيْنِ فِي مُنْتَصَفِ الْمِنْصَةِ تَمَامًا. فَعِنْدَمَا يَفْرَغُ مِنْ بِنَاءِ الْجُدْرَانِ، أَيْنَ سَتَكُونُ حُجْرَةُ نَوْمِهِ؟ لَنْ تَكُونَ ثَمَّةَ حُجْرَةٍ نَوْمٍ مُطْلَقًا. فَلَنْ يَكُونَ ذَلِكَ بَيْنَنَا عَلَى الْإِطْلَاقِ، بَلْ مُجَرَّدَ كَوْمَةٍ كَبِيرَةٍ عَدِيمَةِ الْجَدْوَى مِنَ الْعِصِيِّ وَالطَّيْنِ.»

فَحَكَ بَيْتَ رَأْسِهِ ثُمَّ جَذَبَ شَوَارِبَهُ مُتَفَكِّرًا، بَيْنَمَا أَمْعَنَ النَّظَرَ فِي الْكَوْمَةِ الْقَائِمَةِ فِي الْمَاءِ حَيْثُ كَانَ الْقُدُّسُ بَادِي يَعْمَلُ.

ثُمَّ قَالَ: «يَبْدُو ذَلِكَ ضَرْبًا مِنَ الْحِمَاقَةِ فَعَلًا. لِمَ لَا تَنْبَهُهُ إِلَى الْخَطِ الَّذِي يَرْتَكِبُهُ يَا جِيرِي؟! لَقَدْ بَنَيْتَ لِنَفْسِكَ بَيْتًا رَائِعًا فَحِرِّي بِكَ أَنْ تَتَمَكَّنَ مِنْ مُسَاعَدَةِ بَادِي وَتَنْبِيهِهِ إِلَى أَخْطَائِهِ.»

ابْتَسَمَ جِيرِي بَرِضًا بَالِغٍ عِنْدَمَا ذَكَرَ بَيْتَ بَيْتِهِ الْجَمِيلَ، وَلَكِنَّهُ هَزَّ رَأْسَهُ لَدَى اقْتِرَاحِ أَنْ يُسَيِّدِي النُّصْحَ لِبَادِي.

وَقَالَ مُعْتَرِفًا: «لَا أُرِيدُ؛ فَقَدْ لَا يَرُوقُ لَهُ ذَلِكَ — وَلَا أَظُنُّهُ تَصَرُّفًا مُهَذَّبًا.»

قَالَ بَيْتُ فِي رَفُوضٍ: «مَا كَانَ ذَلِكَ لِيَشْغَلَ بَالِي لَوْ كَانَ ابْنٌ عَمِّي.»

فَهَزَّ جِيرِي رَأْسَهُ وَقَالَ: «نَعَمْ، أَظُنُّكَ مَا كُنْتَ لَتَشْغَلَ بِالِكَ بِذَلِكَ، وَلَكِنَّهُ يَشْغَلُ بَالِي أَنَا وَ... وَ... حَسَنًا، أَظُنُّنِي سَأَنْتَظِرُ قَلِيلًا.»

طَوَالَ ذَلِكَ الْوَقْتُ كَانَ بَادِي يَعْمَلُ بِكَدٍّ؛ فَكَانَ يَجْلِبُ أَطْوَلَ الْأَغْصَانِ الَّتِي قَطَعَهَا مِنَ الْأَشْجَارِ الَّتِي بَنَى مِنْهَا السَّدَّ، وَفُرُوعًا رَفِيعَةً كَثِيرَةً مِنْ أَشْجَارِ الصَّفْصَافِ وَجَارِ الْمَاءِ. كَانَ يَدْفَعُهَا أَمَامَهُ سَابِحًا. وَعِنْدَمَا يَبْلُغُ قَاعِدَةَ بَيْتِهِ، يُمِيلُهَا عَلَى كَوْمَةِ الطَّيْنِ فِي الْمُنْتَصَفِ وَاضِعًا أَطْرَافَهَا الْكُبْرَى عَلَى الْقَاعِدَةِ. وَظَلَّ يَعْمَلُ عَلَى ذَلِكَ الْمُنَوَالِ حَوْلَ الْقَاعِدَةِ بِأَكْمَلِهَا حَتَّى اخْتَفَتْ كَوْمَةُ الطَّيْنِ الْمَوْضُوعَةُ فِي الْمُنْتَصَفِ بَعْدَ حِينٍ؛ فَقَدْ صَارَتْ مُغَطَّاةً تَمَامًا بِالْعِصِيِّ، الَّتِي رُبِطَتْ مِنْ أَعْلَى بِبَرَاغَةٍ.

الفصل الثاني عشر

دَرْسٌ جَدِيدٌ لِفَارِ الْمِسْكِ جِيرِي

إِنْ طَنَنْتَ نَفْسَكَ عَلِيًّا،
فَفِي الْهََاوِيَةِ وَقَعْتَ.
اسْتَعِنْ بِأُذُنَيْكَ وَعَيْنَيْكَ،
وَلِسَانُكَ إِنْ صُنَّتَهُ سَلِمَتْ.

سَيُخْبِرُكَ فَارُ الْمِسْكِ جِيرِي أَنَّ ذَلِكَ الْقَوْلَ مِنْ أَصْدَقِ مَا يَكُونُ؛ فَهُوَ يَعْلَمُ ذَلِكَ، وَقَدْ
اكتشفه بنفسه. وَالآنَ صَارَ حَرِيصًا أَشَدَّ الْحَرِصِ بِشَأْنِ مَا يَقُولُهُ عَنِ الْآخَرِينَ أَوْ عَنْ
أَفْعَالِهِمْ. وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ شَدِيدَ الْحَرِصِ بَيْنَمَا كَانَ ابْنُ عَمِّهِ، الْقُنْدُسُ بَادِي، يَبْنِي بَيْتَهُ.
كَلَّا، لَمْ يَكُنْ جِيرِي حَرِيصًا آنَذاك؛ فَقَدْ ظَنَّ أَنَّهُ أَكْثَرُ دِرَايَةً بِكَيْفِيَّةِ بِنَاءِ الْبُيُوتِ مِنْ بَادِي.
كَانَ وَاثِقًا مِنْ ذَلِكَ عِنْدَمَا رَأَى بَادِي يَرُصُ كَوْمَةً كَبِيرَةً مِنَ الطِّينِ فِي مُنْتَصَفِ الْمِنْصَةِ
حَيْثُ كَانَ يَنْبَغِي لِعُرْفَتِهِ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ بَنَى جِدَارًا مِنَ الْعِصِيِّ حَوْلَهَا. وَقَدْ عَبَّرَ عَنْ ذَلِكَ
الرَّأْيِ لِلْأَرْزَبِ بَيْتَر.

وإِنَّ إِخْبَارَ الْأَرْزَبِ بَيْتَرِ شَيْئًا لَا تُرِيدُ لِلْآخَرِينَ مَعْرِفَتَهُ تَصَرُّفٌ غَيْرُ مَأْمُونٍ بِالْمَرَّةِ؛
فَبَيْتَرُ يُكِنُّ احْتِرَامًا كَبِيرًا لِرَأْيِ جِيرِي فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِبِنَاءِ الْبُيُوتِ؛ فَقَدْ كَانَ شَدِيدَ الْإِعْجَابِ
بِبَيْتِ جِيرِي الْأَنِيْقِ فِي الْبُرْكَهَةِ الْبَاسِمَةِ، وَقَدْ كَانَ بَيِّنًا جَمِيلًا حَقًّا، وَقَدْ يَكُونُ جِيرِي مَعْدُورًا
فِي فَخْرِهِ بِهِ، وَلَكِنَّهُ لَيْسَ مَعْدُورًا فِي ظَنِّهِ أَنَّهُ يَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ عَنِ بِنَاءِ الْبُيُوتِ. وَبِالطَّبَعِ فَقَدْ
أَخْبَرَ بَيْتَرُ كُلَّ مَنْ صَادَفَهُ أَنَّ الْقُنْدُسَ بَادِي يَرْتَكِبُ خَطَأً أَحْمَقَ فِي بِنَاءِ بَيْتِهِ، وَأَنَّ فَارَ
الْمِسْكِ جِيرِي، ذَا الدَّرَايَةِ بِتِلْكَ الْأُمُورِ، قَالَ لَهُ ذَلِكَ.

فَكَانَ سُكَّانُ الْغَابَةِ الْخَضِرَاءِ وَالْمُرُوجِ الْخَضِرَاءِ الصَّغَارُ كُلَّمَا وَاتَتْهُمْ الْفُرْصَةُ، يَتَسَلَّلُونَ إِلَى شَاطِئِ بَرْكَةِ بَادِي الْجَدِيدَةِ ضَاحِكِينَ مِنْ مَنْظَرِ كَوْمَةِ الْعِصِيِّ وَالطَّيْنِ الْكَبِيرَةِ الَّتِي بَنَاهَا بَادِي عَلَى سَبِيلِ الْبَيْتِ، وَلَكِنَّهُ نَسِيَ أَنْ يَصْنَعَ فِيهَا غُرْفَةً. أَوْ إِنَّهُمْ، عَلَى الْأَقْلَى، افْتَرَضُوا أَنَّهُ نَسِيَ ذَلِكَ الْأَمْرَ الْبَالِغَ الْأَهْمِيَّةَ. لَا بُدَّ أَنَّهُ نَسِيَ؛ إِذْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ أَيَّةُ غُرْفَةٍ. فَكَانَ ذَلِكَ مَصْدَرُ نَسْلِيَةٍ كَبِيرًا لَهُمْ. وَكَثِيرًا مَا أَضْحَكُهُمْ، وَقَدْ نَسُوا الْكَثِيرَ مِنَ الْإِحْتِرَامِ الَّذِي تَكُونُ لَدَيْهِمْ إِزَاءَ بَادِي مُنْذُ بِنَائِهِ سَدَّهُ الرَّائِعَ.

وَقَدْ جَلَسَ جِيرِي وَبَيْتَرُ يَتَحَدَّثَانِ فِي الْأَمْرِ عَلَى ضَوْءِ الْقَمَرِ. كَانَ بَادِي قَدْ كَفَّ عَنْ جَلْبِ الْعِصِيِّ مِنْ أَجْلِ بِنَاءِ الْجِدَارِ. وَغَاصَ بَعِيدًا عَنِ الْأَنْظَارِ، وَغَابَ فَتْرَةً طَوِيلَةً. وَفَجْأَةً لَاحَظَ جِيرِي أَنَّ الْمَاءَ تَعَكَّرَ بِشِدَّةٍ حَوْلَ بَيْتِ بَادِي الْجَدِيدِ؛ فَعَقَدَ حَاجِبِيَهُ مُحَاوِلًا التَّفَكِيرَ فِيمَا قَدْ يَكُونُ بَادِي يَفْعَلُهُ. وَبَعْدَ بُرْهَةٍ، صَعِدَ بَادِي لِيَلْتَقِطَ أَنْفَاسَهُ، ثُمَّ غَاصَ مُجَدِّدًا، وَازْدَادَ الْمَاءُ تَعَكَّرًا. وَاسْتَمَرَّ عَلَى ذَلِكَ الْمُنَوَالِ فَتْرَةً طَوِيلَةً؛ فَكَانَ بَادِي يَصْعَدُ لِاتِّقَاطِ أَنْفَاسِهِ وَالْحُصُولِ عَلَى بَضْعٍ دَقَائِقَ مِنَ الرَّاحَةِ كُلِّ حِينٍ، ثُمَّ يَغُوصُ إِلَى أَسْفَلِ، وَيَزْدَادُ الْمَاءُ تَعَكَّرًا.

فِي النِّهَايَةِ لَمْ يَعُدْ جِيرِي يُطِيقُ الْإِنْتِظَارَ. كَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَعْرِفَ مَا يَجْرِي؛ فَانْزَلَقَ فِي الْمَاءِ وَسَبَحَ إِلَى الْبُقْعَةِ الْأَكْثَرِ تَعَكَّرًا. وَمَا إِنْ بَلَغَهَا حَتَّى صَعِدَ بَادِي إِلَى أَعْلَى. فَقَالَ لَهُ بَادِي: «مَرْحَبًا يَا ابْنَ الْعَمِّ جِيرِي! كُنْتُ عَلَى وَشِكِّ دَعْوَتِكَ لِلْمَجِيءِ لِأَعْرِفَ رَأْيَكَ فِي بَيْتِي مِنَ الدَّاخِلِ. اتَّبِعْنِي.»

ثُمَّ غَاصَ بَادِي، وَمِنْ وَرَائِهِ جِيرِي، وَتَبَعَ بَادِي إِلَى أَحَدِ الْمَدَاحِلِ الثَّلَاثَةِ تَحْتَ سَطْحِ الْمَاءِ، وَالَّذِي يُؤَدِّي إِلَى رَذْمَةِ مُمَهَّدَةٍ حَتَّى بَلَغَ أَكْبَرَ وَالْأَطْفَ حُجْرَةَ رَأْمَا جِيرِي فِي حَيَاتِهِ؛ فَشَهَقَ فِي دُھُولٍ. لَمْ يَكُنْ فِي وَسْوَءِهِ سِوَى أَنْ يَشْهَقَ فِي دُھُولٍ، فَقَدْ احْتَبَسَتْ الْكَلِمَاتُ فِي حَلْقِهِ. فَهَا هُوَ كَانَ يَقِفُ فِي تِلْكَ الْغُرْفَةِ الرَّائِعَةِ فَوْقَ سَطْحِ الْمَاءِ، وَهُوَ الَّذِي كَانَ وَاثِقًا لِلْغَايَةِ مِنْ عَدَمِ وُجُودِ غُرْفَةٍ! وَبَدَأَ فِي حَبْرَةٍ مِنْ أَمْرِهِ.

فَفَرَّقَتْ عَيْنَا بَادِي وَقَالَ: «حَسَنًا. مَا رَأَيْكَ؟»

فَرَدَّ عَلَيْهِ جِيرِي قَائِلًا: «أَنَا ... أَنَا ... أَظُنُّهَا رَائِعَةً، رَائِعَةً بِحَقٍّ! وَلَكِنِّي لَا أَفْهَمُ الْبَيْتَةَ يَا ابْنَ الْعَمِّ بَادِي.» ثُمَّ سَأَلَهُ، وَقَدْ بَدَأَ عَلَيْهِ الْغَبَاءُ الَّذِي شَعَرَ بِهِ حِينَ سَأَلَ: «أ... أ... أَيْنَ كَوْمَةُ الطَّيْنِ الْكَبِيرَةِ الَّتِي سَاعَدْتُكَ فِي صُنْعِهَا فِي الْمُنْتَصَفِ؟»

فَأَجَابَهُ بَادِي: «تَخَلَّصْتُ مِنْهَا كُلُّهَا؛ لَإِذَا كَانَ الْمَاءُ مُتَعَكِّرًا لِلْغَايَةِ.»
فَأَلَحَّ جِيرِي بِالسُّؤَالِ: «وَلَكِنْ لِمَاذَا صَنَعْتَهَا مِنْ الْأَصْلِ؟»
فَأَجَابَهُ بَادِي: «لَأَنَّهُ لَا بُدَّ لِي مِنْ شَيْءٍ أَضَعُ عَلَيْهِ الْعِصِيَّ أَثْنَاءَ بِنَائِي الْجُدْرَانَ بِالطَّبْعِ.
فَعِنْدَمَا رَبَطْتُهَا مِنْ أَعْلَى لِتَصْنَعَ سَقْفًا لَمْ تَعُدْ بِحَاجَةٍ إِلَى دِعَامَةٍ، فَتَخَلَّصْتُ مِنْهَا لِكَيْ
أُبْنِيَ هَذِهِ الْحُجْرَةَ. فَقَدْ كَانَ ذَلِكَ السَّبِيلَ الْوَحِيدَ لِبِنَاءِ مِثْلِ تِلْكَ الْحُجْرَةِ الْكَبِيرَةِ؛ أَرَى أَنَّكَ
لَا تَعْرِفُ الْكَثِيرَ عَنْ بِنَاءِ الْبُيُوتِ يَا ابْنَ الْعَمِّ جِيرِي.»
فَأَقَرَّ جِيرِي بِذَلِكَ بِحُزْنٍ قَائِلًا: «أَخْشَى أَنْ تَكُونَ عَلَى حَقٍّ.»

الفصل الثالث عشر

المَخْزَنُ الْعَجِيبُ

كَانَ الْجَمِيعُ يَعْلَمُونَ أَنَّ الْقُنْدُسَ بَادِي يَجْمَعُ مَخْزُونَ الشَّتَاءِ مِنَ الطَّعَامِ، وَكُلُّهُمْ رَأَوْهُ طَعَامًا عَجِيبًا. الْجَمِيعُ عَدَا بَرِيكِي بوركِي؛ فَهُوَ يُحِبُّ الطَّعَامَ ذَاتَهُ، وَلَكِنَّهُ لَا يُخْزِنُهُ أَبَدًا، بَلْ يَخْرُجُ لِإِحْضَارِهِ مَتَى أَرَادَ، سَوَاءً كَانَ ذَلِكَ صَيْفًا أَمْ شِتَاءً. فَمَا هُوَ ذَلِكَ الطَّعَامُ؟ إِنَّهُ لِحَاءُ الْأَشْجَارِ بِالتَّأَكِيدِ. نَعَمْ، لِحَاءُ الْأَشْجَارِ لَا أَكْثَرَ — لِحَاءُ بَعْضِ أَنْوَاعِ الْأَشْجَارِ.

فَبَرِيكِي بوركِي يُمَكِّنُهُ تَسْلُقُ الْأَشْجَارِ وَأَكُلُ اللَّحَاءِ مِنْهَا وَهُوَ مُتَشَبِّهُ بِالْأَشْجَارِ، وَلَكِنَّ الْقُنْدُسَ بَادِي لَا يُمَكِّنُهُ تَسْلُقُهَا. وَإِنْ كَانَ عَلَيْهِ الْإِكْتِفَاءُ بِأَكْلِ لِحَاءِ الْأَشْجَارِ الَّذِي يَسْتَطِيعُ بُلُوغَهُ مِنْ عَلَى الْأَرْضِ، فَسَيَحْتَاجُ أَشْجَارًا كَثِيرَةً جِدًّا لِيَأْكُلَ حَتَّى يَشْبَعَ، وَسُرْعَانَ مَا سَيُتْلَفُ الْغَابَةِ الْخَضِرَاءُ. فَكَمَا تَعْلَمُونَ، إِنَّ لِحَاءَ الْأَشْجَارِ عِنْدَمَا يَنْزِعُ مِنْ حَوْلِ الشَّجَرَةِ، تَمُوتُ؛ فَكُلُّ مَا تَسْتَمِدُّهُ الشَّجَرَةُ مِنَ الْأَرْضِ كَيْ تَنْمُو وَتَظَلَّ حَيَّةً يَحْمِلُهُ إِلَيْهَا سَائِلُ النُّسْغِ مِنَ الْجُذُورِ، وَالنُّسْغُ لَا يُمَكِّنُهُ الصُّعُودُ عَبْرَ جُذُوعِ الْأَشْجَارِ حَتَّى يَصِلَ إِلَى أَغْصَانِهَا بَعْدَ نَزْعِ اللَّحَاءِ؛ لِأَنَّهُ يَنْتَقِلُ عَبْرَ لِحَاءِ الشَّجَرَةِ. فَعِنْدَمَا يَنْزِعُ اللَّحَاءُ مِنْ حَوْلِ جَذَعِ الشَّجَرَةِ، تَمُوتُ جُوعًا.

وَالْقُنْدُسُ بَادِي يُحِبُّ الْغَابَةَ الْخَضِرَاءَ مِثْلَمَا نَحِبُّهَا جَمِيعًا، وَرُبَّمَا أَكْثَرَ قَلِيلًا؛ فَهِيَ مَوْطِنُهُ. وَإِضَافَةً إِلَى ذَلِكَ، فَإِنَّ بَادِي لَمْ يَكُنْ يَوْمًا مُؤَدِّيًّا؛ لِذَا فَهُوَ يَقْطَعُ الشَّجَرَةَ حَتَّى يَأْكُلَ لِحَاءَهَا كُلَّهُ عَوَضًا عَنْ أَنْ يَقْتُلَ أَشْجَارًا كَثِيرَةً مِنْ أَجْلِ الْحُصُولِ عَلَى قَدَرٍ ضَيِّيلٍ

مِنَ اللَّحَاءِ، وَهُوَ مَا كَانَ سَيَفْعَلُهُ إِنْ كَانَ كَسُولًا. وَلَكِنَّهُ لَيْسَ كَسُولًا عَلَى الْإِطْلَاقِ. وَإِنْ أَحَبَّ أَنْوَاعَ اللَّحَاءِ إِلَيْهِ هُوَ لِحَاءُ أَشْجَارِ الْحَوْرِ الرَّجْرَاجِ. وَإِذَا لَمْ يَسْتَطِعِ الْحُصُولَ عَلَيْهِ، يَأْكُلُ لِحَاءَ أَشْجَارِ الْحَوْرِ، وَجَارِ الْمَاءِ، وَالصَّفْصَافِ، وَحَتَّى أَشْجَارِ الْبُتُولَا. وَلَكِنَّهُ يُحِبُّ لِحَاءَ أَشْجَارِ الْحَوْرِ الرَّجْرَاجِ كَثِيرًا، حَتَّى إِنَّهُ يَبْدُلُ جُهْدًا كَبِيرًا فِي سَبِيلِ الْحُصُولِ عَلَيْهِ. قَدْ يَكُونُ لِأَنَّهُ الْأَخْلَى مَذَاقًا لَهُ؛ إِذْ إِنَّهُ يَبْدُلُ جُهْدًا كَبِيرًا حَقًّا لِكَيْ يَحْصُلَ عَلَيْهِ.

وَقَدْ كَانَ ثَمَّةَ بَعْضِ أَشْجَارِ الْحَوْرِ الرَّجْرَاجِ عَلَى حَافَةِ الْبِرْكَةِ الَّتِي صَنَعَهَا بَادِي فِي الْغَابَةِ الْخَضْرَاءِ. فَقَطَعَهَا مِثْلَمَا قَطَعَ الْأَشْجَارَ لِبِنَاءِ السَّدِّ. وَبِمَجَرَّدِ أَنْ تَسْقُطَ الشَّجَرَةُ، كَانَ يَقْطَعُهَا إِلَى أَجْزَاءٍ قَصِيرَةٍ، وَيَسْبَحُ بِهَا إِلَى حَيْثُ كَانَ الْمَاءُ عَمِيقًا، بِالْقُرْبِ مِنْ بَيْتِهِ الْجَدِيدِ. فَكَانَ يَأْخُذُهَا وَاحِدَةً تَلُو الْأُخْرَى، وَيَحْمِلُ أُولَاهَا إِلَى الْقَاعِ؛ حَيْثُ كَانَ يَدْفَعُ بِهَا فِي الطِّينِ بِمَا يَكْفِي لِتَنْبِيئِهَا. ثُمَّ سُرْعَانَ مَا يَجْلِبُ الْمَزِيدَ لِرِصَصِهِ فَوْقَ الْأُولَى. فَأَخَذَتِ الْكَوْمَةُ تَنْمُو وَتَنْمُو.

فَرَجَّحَ فَأَرُ الْمَسْكِ جِيرِي وَالْأَرْزَبُ بَيْتِ وَالرَّاكُونُ بُوْبِي، وَغَيْرُهُمْ مِنْ سُكَّانِ الْغَابَةِ الْخَضْرَاءِ الصَّغَارِ يُرَاقِبُونَهُ بِاهْتِمَامٍ وَفُضُولٍ شَدِيدَيْنِ؛ فَقَدْ عَجَزُوا عَنِ اسْتِيعَابِ مَا يَفْعَلُهُ؛ فَقَدْ بَدَأَ كَأَنَّهُ يَبْنِي قَاعِدَةَ بَيْتٍ جَدِيدٍ.

فَسَأَلَ بَيْتِ، عِنْدَمَا لَمْ يَعْذُ فِي إِمْكَانِهِ السُّكُوتُ: «مَاذَا يَفْعَلُ بَادِي يَا جِيرِي؟» فَأَجَابَهُ جِيرِي: «لَا أَعْلَمُ بِالضَّبْطِ. لَقَدْ قَالَ إِنَّهُ سَيَجْمَعُ خَزِينًا مِنَ الطَّعَامِ لِلشَّتَاءِ، كَمَا أَخْبَرْتُكَ، وَأَظُنُّهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ الْآنَ. وَلَكِنِّي لَا أَفْهَمُ لِمَ يَأْخُذُهُ كُلُّهُ إِلَى الْبِرْكَةِ. أَظُنُّنِي سَأَذْهَبُ لِأَسْأَلَهُ.»

فَرَجَّاهُ بَيْتِ، الَّذِي بَلَغَ مِنْهُ الْفُضُولُ مَبْلَغًا أَعْجَزَهُ عَنِ الْجُلُوسِ سَاكِئًا، قَائِلًا: «اذْهَبْ ثُمَّ انْتَ لِإِخْبَارِنَا.»

فَسَبَّحَ جِيرِي إِلَى حَيْثُ كَانَ بَادِي مُنْهَمِكًا فِي الْعَمَلِ، وَسَأَلَهُ: «هَلْ هَذَا هُوَ مَخْزُونُكَ مِنَ الطَّعَامِ يَا ابْنَ الْعَمِّ بَادِي؟»

فَأَجَابَهُ بَادِي، رِيثْمًا زَحَفَ إِلَى جَانِبِ بَيْتِهِ لِيَسْتَرِيحَ: «نَعَمْ، نَعَمْ، هَذَا هُوَ مَخْزُونِي مِنَ الطَّعَامِ. أَلَيْسَ رَائِعًا؟»

فَأَجَابَهُ جِيرِي، مُحَاوِلًا أَنْ يَكُونَ مُهَذَّبًا: «أَظُنُّ ذَلِكَ، وَإِنْ كُنْتُ أَفْضَلُ جُذُورَ الزَّنْبُقِ وَالْمَحَارِ. وَلَكِنْ مَاذَا سَتَفْعَلُ بِهِ؟ أَيْنَ مَخْزَنُكَ؟»

الْمَخْزَنُ الْعَجِيبُ

فَأَجَابَهُ بَادِي قَائِلًا: «هَذِهِ الْبِرْكَةُ هِيَ مَخْزَنِي. سَأَضَعُ كَوْمَةً كَبِيرَةً هُنَا بِالْقُرْبِ مِنْ بَيْتِي، وَسَيَبْقِيهَا الْمَاءُ لَذِيذَةً طَارِجَةً طَوَالَ فَصْلِ الشِّتَاءِ. وَعِنْدَمَا تَتَجَمَّدُ الْبِرْكَةُ، مَا عَلَيَّ إِلَّا أَنْ أَنْزِلِقَ إِلَى الْخَارِجِ مِنْ أَحَدِ مَدَاخِلِي بِالْأَسْفَلِ عِنْدَ قَاعِ الْبِرْكَةِ، وَأُسَبِّحَ إِلَى هُنَا لِأَجْلِبَ عَصًا أَكُلُّهَا حَتَّى أَشْبَعُ. أَلَا تَرَاهُ مُلَائِمًا؟»

الفصل الرابع عشر

آثارُ في الطينِ

ذَاتَ صَبَاحٍ بَاكِرٍ سَمِعَ الْقُنْدُسُ بَادِي طَائِرَ السَّنْدِيَانِ سَامِي يُحَدِّثُ جَلْبَةً شَدِيدَةً فِي إِحْدَى أَشْجَارِ الْحَوْرِ الرَّجْرَاجِ عَلَى حَافَةِ الْبِرْكَةِ الَّتِي صَنَعَهَا بَادِي فِي الْغَابَةِ الْخَضِرَاءِ. لَمْ يَكُنْ فِي اسْتِطَاعَةٍ بَادِي النَّظَرُ؛ لِأَنَّهُ كَانَ فِي بَيْتِهِ، وَلَمْ يَكُنْ بَيْتُهُ نَافِذَةً، وَلَكِنْ كَانَ فِي اسْتِطَاعَتِهِ أَنْ يَسْمَعَ؛ فَعَقَدَ حَاجِبِيهِ مُفَكَّرًا.

فَقَالَ بَادِي فِي نَفْسِهِ، وَهِيَ عَادَتُهُ؛ إِذْ كَانَ يَقْضِي أَكْثَرَ وَقْتِهِ وَحِيدًا: «يَبْدُو لِي أَنَّ سَامِي شَدِيدُ الْحَمَاسِ الْيَوْمَ؛ فَعِنْدَمَا يَصْرُخُ هَكَذَا، عَادَةً مَا يَكُونُ يُحَاوِلُ فِعْلَ شَيْئَيْنِ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ — كَأَثَارَةِ الْمَتَاعِبِ لِأَحَدٍ وَإِبْقَاءِ آخَرٍ بِمَنَآئِ عَنْهَا — وَعِنْدَمَا تَفَكَّرُ فِي الْأَمْرِ، تَجِدُهُ غَرِيبًا إِلَى حَدِّ مَا؛ فَهُوَ يُثَبِّتُ أَنَّهُ لَيْسَ شَرِيرًا تَمَامًا، وَإِنْ كَانَ مِنَ الْعَسِيرِ أَنْ يُوصَفَ بِالطَّيْبَةِ فِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ. أَظُنُّ، حَسَبَ مَا سَمِعْتُهُ مِنْ أَصْوَاتٍ، أَنَّ سَامِي كَشَفَ التَّغْلَبَ رِيدِي وَهُوَ يُحَاوِلُ مُبَاغِتَةَ أَحَدِهِمْ هُنَاكَ حَيْثُ تَنَّمُو أَشْجَارُ الْحَوْرِ الرَّجْرَاجِ الْمُجَاوِرَةُ لِبَيْتِي. وَرِيدِي يَخْشَانِي، وَلَكِنْ أَظُنُّهُ يَعْلَمُ أَنَّ الْأَرْنََبَ بَيْتَرِ يَتَرَدَّدُ عَلَى هَذِهِ الْأَنْحَاءِ كَثِيرًا فِي الْأَوْتَةِ الْأَخِيرَةِ لِيُشَاهِدَنِي أَثْنَاءَ عَمَلِي، وَيَظُنُّ أَنَّهُ قَدْ يَتِمَكَّنُ مِنَ الْإِمْسَاكِ بِبَيْتَرِ. يَنْبَغِي أَنْ أَهْمَسَ فِي إِحْدَى أُذُنِي بَيْتَرِ الطَّوِيلَتَيْنِ وَأُخْبِرَهُ أَنْ يَأْخُذَ حَذَرَهُ.»

وَبَعْدَ بُرْهَةٍ رَاحَ صَوْتُ سَامِي يَبْتَعِدُ وَيَبْتَعِدُ فِي الْغَابَةِ الْخَضِرَاءِ. وَأَخِيرًا لَمْ يَعُدْ يَسْمَعُهُ مَطْلَقًا. فَفَكَّرَ بَادِي قَائِلًا: «أَيًّا مَنْ كَانَ هُنَاكَ فَقَدْ ذَهَبَ الْآنَ، وَتَبِعَهُ سَامِي لِكَيْ يَغِيظَهُ فَحَسَبَ.» كَانَ بَادِي آتِنِذٍ مَشْغُولًا جِدًّا فِي صُنْعِ فِرَاشِهِ؛ فَقَدْ كَانَ الْقُنْدُسُ بَادِي أُنِيقًا لِلْغَايَةِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِفِرَاشِهِ؛ فَهُوَ يَصْنَعُهُ مِنْ شَطَايَا الْخَشَبِ الرَّفِيعَةِ الَّتِي يَنْزَعُهَا

بِأَسْنَانِهِ الْقَاطِعَةِ الرَّائِعَةِ؛ فَبِذَلِكَ يَصْنَعُ الْفِرَاشَ الْأَكْثَرَ جَفَافًا. وَهُوَ يَتَطَلَّبُ الْكَثِيرَ مِنَ الصَّبْرِ وَالْعَمَلِ، وَلَكِنَّ الصَّبْرَ أَحَدُ أَوَائِلِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي تَتَعَلَّمُهَا الْقَنَادِيسُ الصَّغِيرَةُ، أَمَّا الْعَمَلُ الْمُخْلِصُ الْمُتَقَنُّ فَهُوَ أَحَدُ أَعْظَمِ أَسْبَابِ السَّعَادَةِ فِي الْعَالَمِ، كَمَا اكْتَشَفَ بَادِي بِنَفْسِهِ مُنْذُ زَمَنٍ بَعِيدٍ. وَلِهَذَا ظَلَّ عَاكِفًا عَلَى صُنْعِ فِرَاشِهِ بَعْضَ الْوَقْتِ بَعْدَمَا حَلَّ السُّكُونُ عَلَى أَرْجَاءِ الْمَكَانِ خَارِجَ بَيْتِهِ.

وَأَخِيرًا قَرَّرَ بَادِي أَنْ يَذْهَبَ إِلَى أَشْجَارِ الْحَوْرِ الرَّجْرَاجِ وَيَتَفَقَّدهَا؛ لِكَيْ يُحَدِّدَ أَيُّهَا سَيَقْطَعُهُ اللَّيْلَةُ الْقَادِمَةُ. فَانْزَلَقَ إِلَى أَسْفَلِ إِحْدَى رَدَاهَاتِهِ الطَّوِيلَةِ، خَارِجًا مِنَ الْبَابِ عِنْدَ قَاعِ الْبِرْكَةِ، ثُمَّ سَبَحَ إِلَى السَّطْحِ؛ حَيْثُ طَفَا عَلَى الْمَاءِ بَضْعَ دَقَائِقٍ مُطْلًا مِنْهُ بِرَأْسِهِ فَقَطَّ. وَطَوَالَ الْوَقْتِ انْشَغَلَتْ عَيْنَاهُ وَأَنْفُهُ وَأُذُنَاهُ بِالنَّظَرِ وَالشَّمِّ وَالسَّمْعِ بَحْثًا عَنْ أَيِّ شَيْءٍ يُنْذِرُ بِالْخَطَرِ. وَلَكِنَّ السُّكُونَ سَادَ أَرْجَاءِ الْمَكَانِ. وَعِنْدَمَا تَأَكَّدَ مِنْ أَنَّ الْوَضْعَ آمِنٌ، سَبَحَ إِلَى حَيْثُ نَمَتْ أَشْجَارُ الْحَوْرِ الرَّجْرَاجِ، وَسَارَ مُتَهَادِيًا عَلَى شَاطِئِ الْبِرْكَةِ.

ثُمَّ نَظَرَ يَمِينًا وَيَسَارًا. ثُمَّ نَظَرَ إِلَى قِمَمِ الْأَشْجَارِ، وَأَعْلَى التَّلَالِ، وَلَكِنَّهُ نَظَرَ أَكْثَرَ إِلَى الْأَرْضِ. نَعَمْ، رَاحَ بَادِي يَتَفَحَّصُ الْأَرْضَ؛ فَهُوَ لَمْ يَنْسَ الْجَلْبَةَ الَّتِي أَثَارَهَا طَائِرُ السَّنْدِيَانِ سَامِي، وَكَانَ يُحَاوِلُ مَعْرِفَةَ سَبَبِهَا. فِي الْبِدَايَةِ لَمْ يَجِدْ شَيْئًا خَارِجًا عَنِ الْمَالُوفِ، وَلَكِنَّهُ لَاحَظَ بَعْدَ حِينٍ رُقْعَةً صَغِيرَةً مُبْتَلَةً، وَفِي مُنْتَصَفِهَا كَانَ شَيْءٌ اتَّسَعَتْ لَهُ عَيْنَاهُ؛ كَانَ أَثَرُ قَدَمٍ! فَقَدْ دَاسَ أَحَدُهُمْ فِي الطِّينِ بِتَهَاوُنٍ.

هَتَفَ بَادِي مُتَعَجِّبًا، وَقَدْ انْتَصَبَ الشَّعْرُ عَلَى ظَهْرِهِ قَلِيلًا، وَاقْشَعَرَ بَدَنُهُ لِذَلِيلَةِ قَدَمِهِ؛ فَكَانَ أَثَرُ الْقَدَمِ يُشَبِّهُ أَثَرَ أَقْدَامِ الثَّعْلَبِ رِيْدِي كَثِيرًا، وَإِنْ كَانَ أَكْبَرَ.

فَهَتَفَ مُتَعَجِّبًا مَرَّةً أُخْرَى، وَأَرْدَفَ: «مَنْ الْمُؤَكِّدُ أَنَّ تِلْكَ أَثَارَ أَقْدَامِ الْقَيْبُوطِ الْعَجُوزِ! أَرَى أَنَّنِي لَا بَدَّ أَنْ أَخْذَ حَذَرِي أَكْثَرَ مِمَّا ظَنَنْتُ. حَسَنًا يَا سَيِّدِي الْقَيْبُوطُ؛ الْآنَ وَقَدْ صُرْتُ أَعْرِفُ أَنَّكَ قَرِيبٌ مِنْ هُنَا، عَلَيْكَ أَنْ تَكُونَ أَذْكَى مِمَّا أَتَخَيَّلُ حَتَّى تَتِمَّكَنَ مِنَ الْإِمْسَاكِ بِي. قَطْعًا سَتَعُودُ لِتَبْحَثَ عَنِّي اللَّيْلَةَ، فَأُظَنِّي سَأَفْرَعُ مِنْ تَقْطِيعِ الشَّجَرَةِ الْآنَ فِي وَضَحِ النَّهَارِ.»

زِيَارَةُ سَامِي

كَانَ الْقُنْدُسُ بَادِي مُنْهَمِكًا فِي الْعَمَلِ. فَكَانَ قَدْ فَرَغَ لِنَوِّهِ مِنْ تَقْطِيعِ شَجَرَةِ حُورٍ رَجْرَاجٍ كَبِيرَةٍ نَسْبِيًّا، وَكَانَ حِينَهَا يُقْطَعُهَا بِأَسْنَانِهِ إِلَى أَجْزَاءٍ قَصِيرَةٍ؛ لِيَضَعَهَا فِي كَوْمَةِ الطَّعَامِ الْمَوْجُودَةِ لَدَيْهِ فِي الْبِرْكَةِ. وَأَثْنَاءَ عَمَلِهِ كَانَ مَشْغُولَ الْفِكْرِ بِمَسْأَلَةِ أَثَارِ أَقْدَامِ الْقَيُْوطِ الْعُجُوزِ الَّتِي وَجَدَهَا وَسَطَ بُقْعَةٍ طِينٍ صَغِيرَةٍ؛ إِذْ عَرَفَ أَنَّ مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ الْقَيُْوطَ الْعُجُوزَ اكْتَشَفَ بِرِكَتِهِ، وَمِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَجُولَ فِي الْمَكَانِ؛ أَمَلًا فِي الْإِيقَاعِ بِبَادِي عَلَى غَفْلَةٍ مِنْهُ. كَانَ بَادِي وَاثِقًا مِنْ ذَلِكَ تَمَامِ الثَّقَةِ؛ وَمِنْ ثَمَّ شَرَعَ فِي جَمْعِ مَخْزُونِ طَعَامِهِ أَثْنَاءَ النَّهَارِ؛ فَهُوَ عَادَةً يَعْمَلُ لَيْلًا، وَكَانَ يَعْلَمُ أَنَّ الْقَيُْوطَ الْعُجُوزَ عَلَى عِلْمٍ بِذَلِكَ.

فَفَكَّرَ بَادِي فِي نَفْسِهِ قَائِلًا: «سَيُحَاوِلُ الْإِمْسَاكَ بِي لَيْلًا؛ لِذَا سَأُنْهِي الْعَمَلَ الَّذِي أَقُومُ بِهِ عَلَى الْأَرْضِ الْآنَ وَأُخْدَعُهُ».

بَدَأَتِ الشَّجَرَةُ الَّتِي كَانَ يُقْطَعُهَا تَتَأَرْجَحُ وَتَنْكَسِرُ، فَقَضَمَ بَادِي قَضْمَةً كَبِيرَةً أُخْرَى، ثُمَّ أَسْرَعَ بِالْهُرُوبِ إِلَى مَكَانٍ أَمِنٍ، بَيْنَمَا سَقَطَتِ الشَّجَرَةُ مُحْدَثَةً دَوِيًّا عَالِيًّا.

فَتَعَالَى صَوْتُ صِيَاحٍ مِنْ خَلْفِ بَادِي قَائِلًا: «لِصَّرْ! لِصَّرْ! لِصَّرْ!»

فَقَالَ بَادِي: «مَرْحَبًا يَا سَامِي! أَرَى أَنَّ مِرَاجَكَ سَيَبُيْ كَالْمُعْتَادِ هَذَا الصَّبَاحَ. أَلَا تَرَعْبُ فِي الْجُلُوسِ فَوْقَ تِلْكَ الشَّجَرَةِ رَيْنَمَا أَقْطَعُهَا؟»

فَاسْوَدَّ وَجْهُ سَامِي غَضَبًا؛ إِذْ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ بَادِي يَسْخَرُ مِنْهُ. فَكَمَا تَذْكُرُونَ، مُنْذُ بَضْعَةِ أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ كَانَ اهْتِمَامُهُ مُنْصَبًّا تَمَامًا عَلَى سَبِّ بَادِي، حَتَّى إِنَّهُ لَمْ يَلْحَظْ أَنَّ بَادِي

كَانَ أَخْذًا فِي تَقْطِيعِ الشَّجَرَةِ ذَاتِهَا حَيْثُ كَانَ سَامِي جَالِسًا، فَانْتَابَهُ فَرَعٌ شَدِيدٌ عِنْدَمَا سَقَطَتْ.

فَصَاحَ بِهِ سَامِي قَائِلًا: «تَظُنُّ نَفْسَكَ بِالْغِ الذِّكَاءِ يَا سَيِّدِي الْقُنْدُسُ، وَلَكِنَّكَ سَتُغَيِّرُ رَأْيَكَ يَوْمًا! لَوْ بَلَغَكَ مَا عَرَفْتُهُ، مَا فَرَحْتَ بِنَفْسِكَ إِلَى هَذَا الْحَدِّ.»
فَسَأَلَهُ بَادِي، مُتَظَاهِرًا بِالْقَلْقِ الشَّدِيدِ: «وَمَاذَا عَرَفْتَ؟»

فَرَدَّ عَلَيْهِ طَائِرُ السُّنْدِيَّانِ سَامِي قَائِلًا: «لَنْ أَخْبِرَكَ مَا عَرَفْتُ. سَتَعْرِفُ بِنَفْسِكَ عَمَّا قَرِيبٍ. وَعِنْدَمَا تَعْرِفُ، لَنْ تَسْرِقَ شَجَرَةً مِنْ غَابِتِنَا الْخَضِرَاءِ ثَانِيَةً؛ فَأَحَدُهُمْ سَيُمْسِكُ بِكَ، وَهُوَ لَيْسَ ابْنُ الْمُرَارِعِ براون!»

فَنَظَاهَرَهُ بَادِي بِالْخَوْفِ الشَّدِيدِ، وَرَاحَ يَسْأَلُهُ رَاحِيًا: «أَوْه، مَنْ هُوَ؟ أَخْبِرْنِي أَرْجُوكَ يَا سَيِّدِي طَائِرَ السُّنْدِيَّانِ.»

شَعَرَ سَامِي بِأَهْمِيَّتِهِ الْكَبِيرَةِ لَدَى مُنَادَاتِهِ بِـ «سَيِّدِي طَائِرِ السُّنْدِيَّانِ»؛ فَالْجَمِيعُ تَقَرَّبُوا عِندَ بَادِي كَانُوا يُنَادُونَهُ سَامِي. فَنَفَسَ رِيَشَهُ مُحَاوِلًا أَنْ يَبْدُوَ مُهِمًّا مِثْلَمَا تَرَأَى لَهُ، وَبَرَقَتْ عَيْنَاهُ فِي نَشْوَةٍ. لَقَدْ نَجَحَ فِي إِخَافَةِ الْقُنْدُسِ بَادِي حَقًّا. أَوْ عَلَى الْأَقْلَى كَانَ ذَلِكَ مَا ظَنَّهُ.

فَرَدَّ عَلَيْهِ قَائِلًا: «كَلَّا يَا سَيِّدِي، لَنْ أَخْبِرَكَ. وَلَكِنِّي لَا أَوْدُ أَنْ أَكُونَ مَكَانَكَ أَبَدًا! فَهَنَّاكَ مَنْ هُوَ أَذْكَى مِنْكَ وَسَيُمْسِكُ بِكَ، وَعِنْدَمَا يَنْتَهِي مِنَ التَّهَامِكِ لَنْ يَتَبَقَّى مِنْكَ سِوَى بَعْضِ الْعِظَامِ؛ نَعَمْ يَا سَيِّدِي، لَا شَيْءَ سِوَى بَعْضِ الْعِظَامِ!»

فَهْتَفَ بَادِي قَائِلًا: «أَوْه يَا سَيِّدِي طَائِرِ السُّنْدِيَّانِ، يَا لَهَا مِنْ أَنْبَاءٍ مُفْرِعَةٍ! مَاذَا عَلَيَّ أَنْ أَفْعَلَ؟» وَطَوَالَ ذَلِكَ الْوَقْتُ مَا بَرَحَ يَقْطَعُ الشَّجَرَةَ.

فَأَجَابَهُ سَامِي، وَهُوَ يَبْتَسِمُ فِي حُبْتٍ مِمَّا أَصَابَ بَادِي مِنْ خَوْفٍ: «لَيْسَ ثَمَّةَ مَا يُمَكِّنُكَ فِعْلُهُ. لَيْسَ ثَمَّةَ مَا يُمَكِّنُكَ فِعْلُهُ سِوَى أَنْ تَعُودَ أَذْرَاجَكَ إِلَى الشَّمَالِ الَّذِي جِئْتَ مِنْهُ. تَظُنُّ نَفْسَكَ بِالْغِ الذِّكَاءِ، وَلَكِنْ...»

وَلَمْ يُكْمِلْ سَامِي حَدِيثَهُ. ثُمَّ، طَرَاخُ! سَقَطَتِ الشَّجَرَةُ الَّتِي كَانَ بَادِي يَقْطَعُهَا وَاصْطَلَمَتْ قِمَّتُهَا بِشَجَرَةِ جَارِ الْمَاءِ حَيْثُ كَانَ سَامِي جَالِسًا. فَبَسَطَ سَامِي جَنَاحَيْهِ وَحَلَقَ مُبْتَعِدًا فِي اللَّحْظَةِ الْأَخِيرَةِ، صَارِخًا: «أَوْه! أَوْه! النَّجْدَةُ!»

زِيَارَةُ سَامِي

فَجَلَسَ بَادِي وَأَخَذَ يَضْحَكُ حَتَّى آلَمَهُ الضَّحْكُ، ثُمَّ قَالَ: «عُدْ لِي زِيَارَتِي يَوْمًا يَا سَامِي!
وَعِنْدَمَا تَأْتِي، أَرْجُو أَنْ تَجْلِبَ لِي أَنْبَاءَ حَقِيقِيَّةٍ. أَنَا أَعْرِفُ أَمْرَ الْقَيْوُطِ الْعَجُوزِ. فَلْتُخْبِرْهُ
نِيَابَةً عَنِّي أَنَّهُ عِنْدَمَا يُحَطِّطُ لِلإِمْسَاكِ بِأَحَدٍ عَلَيْهِ أَنْ يَحْذَرَ مِنْ تَرْكِ آثَارِ أَقْدَامِ تَكْشِفُ
أَمْرَهُ.»

فَلَمْ يَرُدَّ سَامِي، وَإِنَّمَا تَسَلَّلَ عَبْرَ الْغَايَةِ الْخَضِرَاءِ، وَقَدْ بَدَأَ عَلَيْهِ الشُّعُورُ بِالْحُمُقِ.

الْقَيْوُطُ الْعَجُوزُ الدَّاهِيَةُ

إِنَّ الْقَيْوُطَ لَدَاهِيَةٌ،
وَذَكَؤُهُ حَادٌّ وَالْكَسْبُ لَهُ غَايَةٌ.

لَا شَيْءَ فِي الْعَالَمِ أَصْدَقُ مِنْ ذَلِكَ؛ فَالْقَيْوُطُ الْعَجُوزُ هُوَ أَكْثَرُ سُكَّانِ الْغَابَةِ الْخَضِرَاءِ وَالْمُرُوجِ الْخَضِرَاءِ الصَّغَارِ دَهَاءً. فَعَلَى الرَّعْمِ مِنْ شِدَّةِ ذِكَاةِ الْجِدَّةِ ثَعْلَبَةُ الْعَجُوزِ، فَإِنَّهُ لَا يُضَاهِي ذِكَاةَ الْقَيْوُطِ الْعَجُوزِ. وَإِنْ أَرَدْتَ خِدَاعَهُ، فَعَلَيْكَ أَنْ تَسْتَنْقِظَ فِي الصَّبَاحِ الْبَاكِرِ، ثُمَّ إِنَّهُ مِنَ الْأَرْجَحِ أَنْ تَكُونَ أَنْتَ ضَحِيَّةَ الْخُدْعَةِ لَا هُوَ. فَلَا يُوجَدُ الْكَثِيرُ مِمَّا يَجْرِي حَوْلَهُ دُونَ عِلْمِهِ. وَلَكِنَّهُ يَغْفُلُ عَنْ أَمْرٍ مِنْ حِينَ لِأَخَرٍ. وَقَدْ كَانَ مَجِيءُ الْقُنْدُسِ بَادِي إِلَى الْغَابَةِ الْخَضِرَاءِ أَحَدَ تِلْكَ الْأُمُورِ؛ فَهُوَ لَمْ يَعْلَمْ شَيْئًا عَنْ بَادِي حَتَّى فَرَعَ مِنْ بِنَاءِ سَدِّهِ وَبَيْتِهِ، وَرَاحَ يَقْطَعُ الْأَشْجَارَ الَّتِي سَتَمِدُّهُ بِمَخْزُونِ الطَّعَامِ فِي الشِّتَاءِ.

وَمَا حَدَثَ كَانَ الْآتِي: عِنْدَمَا نَمَى إِلَى عِلْمِ النَّسَمَاتِ الرَّقِيقَةِ الْمَرِحَةِ لِلرِّيَّاحِ الْغَرْبِيَّةِ الْعَجُوزِ مَا يَحْدُثُ فِي الْغَابَةِ الْخَضِرَاءِ، وَأَسْرَعَتْ تَنْشُرُ الْأَنْبَاءَ فِي أَنْحَاءِ الْغَابَةِ وَمُرُوجِهَا الْخَضِرَاءِ، كَعَادَتِهَا، بِذَلِكَ قُصَارَى جُهِدِهَا لِتَتَجَنَّبَ أَنْ تَبْدُرَ مِنْهَا وَلَوْ إِشَارَةً عَنِ الْأَمْرِ إِلَى الْقَيْوُطِ الْعَجُوزِ؛ لِأَنَّهَا خَشِيَتْ أَنْ يَتَسَبَّبَ فِي الْمَتَاعِبِ، وَرُبَّمَا يَدْفَعُ بَادِي إِلَى الرَّحِيلِ؛ فَقَدْ كَانَ الْمَكَانَ الَّذِي اخْتَارَهُ بَادِي لِبِنَاءِ السَّدِّ مُتَوَعِّلًا فِي جَوْفِ الْغَابَةِ إِلَى حَيْثُ يَنْدُرُ أَنْ يَذْهَبَ الْقَيْوُطُ الْعَجُوزُ؛ لِذَا لَمْ يَعْلَمْ شَيْئًا عَنْ بَادِي كَمَا لَمْ يَعْلَمْ عَنْهُ بَادِي شَيْئًا لِفَتْرَةٍ. وَلَكِنْ بَعْدَ حِينٍ لَاحَظَ الْقَيْوُطُ الْعَجُوزُ أَنَّ سُكَّانَ الْمُرُوجِ الْخَضِرَاءِ الصَّغَارِ لَمْ يَعُودُوا مُتَوَاجِدِينَ بِالْقَدْرِ الْمُعْتَادِ، وَبَدَأَ أَنَّهْمَ يَحْمِلُونَ سِرًّا؛ فَذَكَرَ الْأَمْرَ إِلَى صَدِيقِهِ، الْغُرَيْرِ حِفَارِ.

كَانَ حِفَارٌ شَدِيدَ الْإِنْشَغَالِ بِشُئُونِهِ حَتَّى إِنَّهُ لَمْ يَلْحَظْ شَيْئًا خَارِجًا عَنِ الْمَأْلُوفِ، وَلَكِنْ عِنْدَمَا ذَكَرَ الْقَيْبُوطُ الْعَجُوزَ ذَلِكَ الْأَمْرَ تَذَكَّرَ أَنَّ الْغُرَابَ بِلَاكِي كَانَ يَتَوَجَّهَ إِلَى الْغَابَةِ الْخَضِرَاءِ كُلِّ صَبَاحٍ. وَقَدْ أَبْصَرَ طَائِرَ السَّنْدِيَانِ سَامِيَ عِدَّةٍ مَرَّاتٍ مُحَلِّقًا فِي الْإِتِّجَاهِ ذَاتِهِ وَكَأَنَّهُ يَتَعَجَّلُ الْوُصُولَ إِلَى مَكَانٍ مَا.

فَابْتَسَمَ الْقَيْبُوطُ الْعَجُوزُ وَقَالَ: «هَذَا كُلُّ مَا أَحْتَاجُ مَعْرِفَتَهُ يَا صَدِيقِي حِفَارُ؛ فَعِنْدَمَا يَزُورُ الْغُرَابُ بِلَاكِي وَسَامِي مَكَانًا أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ، يَكُونُ ثَمَّةَ أَمْرٍ مُثِيرٍ لِلْإِهْتِمَامِ يَجْرِي هُنَاكَ. أَظُنُّنِي سَأَتَجَوَّلُ فِي أَنْحَاءِ الْغَابَةِ الْخَضِرَاءِ وَآتَفَقَدُ الْمَكَانَ.»

ثُمَّ انْطَلَقَ الْقَيْبُوطُ الْعَجُوزُ فِي طَرِيقِهِ. وَلَكِنَّهُ كَانَ أَمَكْرَ وَأَذْهَى مِنْ أَنْ يَتَّجِهَ إِلَى الْغَابَةِ الْخَضِرَاءِ مُبَاشَرَةً. فَتَظَاهَرَ بِأَنَّهُ يَصْطَادُ عِنْدَ الْمَرْوَجِ الْخَضِرَاءِ كَعَادَتِهِ، أَخْذًا فِي الْإِقْتِرَابِ طَوَالَ الْوَقْتِ مِنَ الْغَابَةِ. وَعِنْدَمَا بَلَغَ أَطْرَافَهَا، تَسَلَّلَ بَيْنَ الْأَشْجَارِ، وَعِنْدَمَا تَأَكَّدَ أَنَّهُ مِنَ الْمُسْتَبْعَدِ أَنْ يَرَاهُ أَحَدٌ، بَدَأَ يَرْكُضُ هُنَا وَهُنَاكَ وَأَنْفَهُ قَرِيبٌ مِنَ الْأَرْضِ.

وَبَعْدَ بُرْهَةٍ هَتَفَ: «هَاهُ! الثَّغْلَبُ رِيدِي كَانَ هُنَا فِي الْأَوْنَةِ الْأَخِيرَةِ.» وَسُرْعَانَ مَا وَجَدَ أَثَرًا آخَرَ. فَقَالَ: «إِذَنْ، فَقَدْ تَرَدَّدَ الْأَرْزُبُ بَيْتَرِ عَلَى هَذَا الْمَكَانِ كَثِيرًا فِي الْأَوْنَةِ الْأَخِيرَةِ، وَإِنَّ أَثَرَهُ يَسِيرُ فِي الْإِتِّجَاهِ ذَاتِهِ كَأَثَرِ الثَّغْلَبِ رِيدِي. أَظُنُّ أَنَّنِي الْآنَ مَا عَلَيَّ سِوَى أَنْ أَتَقَفَّى أَثَرَ بَيْتَرِ، وَهُوَ سَيُرْشِدُنِي إِلَى مَا أُرِيدُ مَعْرِفَتَهُ.»

فَتَقَفَّى الْقَيْبُوطُ الْعَجُوزُ أَثَرَ بَيْتَرِ، وَسُرْعَانَ مَا بَلَغَ بَرْكَةَ الْقُنْدُسِ بَادِي. فَقَالَ، إِذْ رَفَعَ عَيْنَيْهِ وَأَبْصَرَ بَيْتَ بَادِي: «هَاهُ! إِذَنْ هُنَاكَ وَافِدٌ جَدِيدٌ فِي الْغَابَةِ الْخَضِرَاءِ! طَالَمَا سَمِعْتُ أَنَّ الْقَنَادِسَ شَهِيَّةٌ جَدًّا. صِرْتُ أَشْعُرُ بِالْجُوعِ فِعْلًا.» وَبَدَأَ لُعَابُهُ يَسِيلُ، وَبَدَتْ فِي عَيْنَيْهِ الصَّفْرَاوَيْنِ نَظْرَةُ شَرَسَةٍ جَائِعَةٍ.

وَفِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ رَأَاهُ طَائِرُ السَّنْدِيَانِ سَامِي وَرَاحَ يَصْرُخُ بِأَعْلَى صَوْتٍ حَتَّى يَسْمَعَهُ الْقُنْدُسُ بَادِي فِي بَيْتِهِ. فَعَلِمَ الْقَيْبُوطُ الْعَجُوزُ أَنَّهُ لَا جَدْوَى مِنَ الْبَقَاءِ أَثْنَاءَ وُجُودِ سَامِي، فَالْقَى نَظْرَةً خَاطِفَةً عَلَى الْبَرْكَةِ وَعَرَفَ أَيْنَ يَأْتِي بَادِي إِلَى الْبَرِّ لِيَجْلِبَ طَعَامَهُ. ثُمَّ انْطَلَقَ عَائِدًا إِلَى الْمَرْوَجِ الْخَضِرَاءِ، مُلَوِّحًا بِقَبْضَتِهِ فِي وَجْهِ سَامِي، وَقَالَ: «إِذَنْ سَأُزُورُ هَذَا الْمَكَانَ فِي اللَّيْلِ وَأُفَاجِئُ السَّيِّدَ قُنْدُسَ أَثْنَاءَ عَمَلِهِ.»

إِلَّا أَنَّ الْقَيْبُوطَ الْعَجُوزَ، رَغْمَ شِدَّةِ دَهَائِهِ، لَمْ يَلْحَظْ أَنَّهُ خَلَفَ أَثَرَ قَدَمٍ فِي الطِّينِ.

حَسْرَةُ الْقَيْوُطِ الْعَجُوزِ

تَمَدَّدَ الْقَيْوُطُ الْعَجُوزُ فِي الْبُقْعَةِ الَّتِي يُفْضِلُ قَضَاءَ قَيْلُولَتِهِ فِيهَا عَلَى الْمُرُوجِ الْخَضِرَاءِ. وَكَانَ يُفَكِّرُ فِيمَا اكْتَشَفَهُ ذَلِكَ الصَّبَاحُ فِي الْغَابَةِ الْخَضِرَاءِ؛ وَهُوَ أَنَّ الْقُنْدُسَ بَادِي يُقِيمُ هُنَاكَ. بَدَتْ لِلْقَيْوُطِ الْعَجُوزِ أَفْكَارٌ مُبْهَجَةٌ جَدًّا، وَإِنْ كَانَتْ فِي الْوَاقِعِ أَفْكَارًا بَغِيضَةً؛ فَقَدْ كَانَ يُفَكِّرُ فِي مَدَى سُهولةِ الْإِمْسَاكِ بِبَادِي، وَأَنَّهُ سَيَكُونُ وَجِبَةً شَهِيَّةً لِلْغَايَةِ. وَلَعَقَ فَاهُ عِنْدَمَا خَطَرَتْ تِلْكَ الْفِكْرَةَ عَلَى بَالِهِ.

وَفَكَّرَ الْقَيْوُطُ الْعَجُوزُ قَائِلًا: «هُوَ لَا يَعْلَمُ أَنَّنِي أَعْلَمُ بِوُجُودِهِ، بَلْ إِنِّي إِحَالُهُ لَا يَعْلَمُ بِوُجُودِي فِي الْجَوَارِ مِنَ الْأَسَاسِ، وَبِالطَّبْعِ لَنْ يَتَرَقَّبَ مَجِيئِي. إِنَّهُ يَقَطِّعُ أَشْجَارَهُ أَثْنَاءَ اللَّيْلِ، فَمَا عَلَيَّ الْآنَ سِوَى أَنْ أُخْتَبِئَ بِالْقُرْبِ مِنْ مَكَانٍ عَمَلِهِ، حَتَّى يَلِجَ بِنَفْسِهِ فِي فَمِي مُبَاشَرَةً. فَطَائِرُ السَّنْدِيَانِ سَامِي يَعْلَمُ أَنَّنِي كُنْتُ هُنَاكَ صَبَاحَ الْيَوْمِ، وَلَكِنَّهُ يَنَامُ أَثْنَاءَ اللَّيْلِ، فَلَنْ يُطْلِقَ الْإِنْذَارَ. أَه، كَمْ سَيَكُونُ مَذَاقُ الْقُنْدُسِ طَيِّبًا!» ثُمَّ لَعَقَ فَاهُ مَرَّةً أُخْرَى، وَتَنَاءَبَ ثُمَّ أَغْلَقَ عَيْنَيْهِ لِيَغْفُو قَلِيلًا.

وَانْتَظَرَ الْقَيْوُطُ الْعَجُوزُ حَتَّى أَوَى قُرْصُ الشَّمْسِ الْأَحْمَرُ الْمُسْتَدِيرُ الْمَرْحُ إِلَى فِرَاشِهِ خَلْفَ التَّلَالِ الْأَرْجَوَانِيَّةِ، وَأَسْدَلَتْ الظُّلَالُ السَّوْدَاءُ أَسْتَارَهَا عَلَى الْمُرُوجِ الْخَضِرَاءِ. ثُمَّ تَسَلَّلَ إِلَى الْغَابَةِ الْخَضِرَاءِ مُحْتَمِيًا بِأَكْثَرِ الظُّلَالِ سَوَادًا، وَقَدْ بَدَأَ هُوَ نَفْسُهُ أَشْبَهَ بِالظِّلِّ. كَانَتْ الْغَابَةُ مُظْلِمَةً، وَاتَّجَهَ الْقَيْوُطُ الْعَجُوزُ إِلَى بَرْكَةِ بَادِي الْجَدِيدَةِ مُبَاشَرَةً، مُهْرَوْلًا بِخَفَةِ دُونَ أَنْ يَصْدُرَ مِنْهُ صَوْتُ. وَعِنْدَمَا اقْتَرَبَ مِنْ أَشْجَارِ الْحَوْرِ الرَّجْرَاجِ الَّتِي كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ بَادِي يَنْوِي تَقْطِيعَهَا، تَسَلَّلَ إِلَى الْأَمَامِ بِبُطْءٍ وَحَذَرٍ شَدِيدَيْنِ. وَكَانَ السُّكُونُ مَا زَالَ مُحَيِّمًا عَلَى الْأَنْحَاءِ.

فَفَكَّرَ الْقَيْوُطُ الْعَجُوزُ قَائِلًا: «مُمَنَّا! لَقَدْ وَصَلْتُ قَبْلَهُ، وَالْآنَ مَا عَلَيَّ سِوَى أَنْ أَخْتَبِيَ؛
انْتَظَرًا لِخُرُوجِ بَادِي إِلَى ضَفَةِ الْبِرْكَةِ.»

فَاسْتَلْقَى مُنْبَطِحًا خَلْفَ بَعْضِ الْأَغْصَانِ الْمُتَشَابِكَةِ بِالْقُرْبِ مِنَ الْمَمَرِّ الضَّيِّقِ الَّذِي
صَنَعَهُ بَادِي مِنْ حَافَةِ الْمَاءِ وَانْتَظَرَ. كَانَ السُّكُونُ مُحْيِمًا عَلَى الْأَنْحَاءِ، إِلَى حَدِّ أَنَّهُ ظَنَّ
أَنَّ بِإِمْكَانِهِ سَمَاعَ ضَرَبَاتِ قَلْبِهِ. كَانَ يَرَى النُّجُومَ الصَّغِيرَةَ مُتَلَالِئَةً فِي السَّمَاءِ، بَيْنَمَا
تَلَالُؤًا انْعِكَاسُهَا عَلَى مِيَاهِ بِرْكَةِ بَادِي. ظَلَّ الْقَيْوُطُ الْعَجُوزُ مُنْتَظِرًا؛ فَهُوَ صَبُورٌ جَدًّا
عِنْدَمَا يَكُونُ ثَمَّةَ مُقَابِلٍ لِصَبْرِهِ. فَمِنْ أَجْلِ الْحُصُولِ عَلَى عَشَاءٍ رَائِعٍ كَالْقُدُّوسِ بَادِي، كَانَ
بِإِمْكَانِهِ أَنْ يَصْبِرَ كَثِيرًا. فَانْتَظَرَ ثُمَّ انْتَظَرَ، وَبَدَأَ كُلُّ شَيْءٍ سَاكِئًا لِلْغَايَةِ كَأَن لَيْسَ مِنْ
كَائِنٍ حَيٍّ سِوَى الْأَشْجَارِ. وَحَتَّى الْأَشْجَارُ بَدَتْ نَائِمَةً.

وَأَخِيرًا بَعْدَ فِتْرَةٍ طَوِيلَةٍ جَدًّا، نَمَى إِلَى مَسَامِعِهِ صَوْتُ خَافَتْ فِي الْمَاءِ. فَانْتَصَبَتْ
أُذُنَاهُ وَاخْتَلَسَ النَّظَرُ إِلَى الْبِرْكَةِ وَقَدْ لَاحَتْ فِي عَيْنَيْهِ الصَّفَرَاوَيْنِ نَظْرَةً جُوعٍ نَهْمَةً؛ فَقَدْ
كَانَ ثَمَّةَ خَطِّ فَصِّي رَفِيعٍ فِي الْمَاءِ يَقْتَرِبُ تَجَاهَهُ. وَكَانَ يَعْلَمُ أَنَّ سِبَاحَةَ بَادِي هِيَ الَّتِي
صَنَعَتْ ذَلِكَ الْخَطَّ. رَاحَ الْخَطُّ يَقْتَرِبُ أَكْثَرَ فَأَكْثَرَ، فَضَحِكَ الْقَيْوُطُ الْعَجُوزُ فِي أَعْمَاقِهِ،
دُونَ أَنْ يُصْدِرَ صَوْتًا. كَانَ بِإِمْكَانِهِ رُؤْيَا رَأْسِ بَادِي آنَذَا، وَكَانَ قَادِمًا بِثِقَةٍ، كَأَنَّهُ لَا
يَخْشَى شَيْئًا فِي الْعَالَمِ.

سَبَحَ بَادِي حَتَّى حَافَةِ الْبِرْكَةِ تَقْرِيْبًا، ثُمَّ تَوَقَّفَ. وَفِي غُضُونٍ بَضْعِ دَقَائِقَ بَدَأَ يَسْبَحُ
مُجَدِّدًا، وَلَكِنْ فِي اتِّجَاهِ الْعُودَةِ إِلَى بَيْتِهِ هَذِهِ الْمَرَّةَ، وَبَدَأَ أَنَّهُ يَحْمِلُ شَيْئًا. كَانَ يَحْمِلُ قِطْعَةً
مِنْ طَعَامِهِ الَّذِي قَطَعَهُ مِنَ الْأَشْجَارِ ذَلِكَ الْيَوْمَ، وَكَانَ يَحْمِلُهَا إِلَى مَخْرَجِهِ. ثُمَّ عَادَ لِيَنْقَلِ
أُخْرَى. وَاسْتَمَرَّ عَلَى ذَلِكَ الْمِنْوَالِ، دُونَ أَنْ يَخْرُجَ إِلَى الشَّاطِئِ وَلَوْ مَرَّةً. فَانْتَظَرَ الْقَيْوُطُ
الْعَجُوزُ حَتَّى حَمَلَ بَادِي آخِرَ قِطْعَةٍ خَسِبَ إِلَى مَخْرَجِهِ، ثُمَّ ضَرَبَ الْمَاءَ بِذَيْلِهِ الْعَرِيضِ
مُحْدِثًا صَوْتًا عَالِيًا، وَغَاصَ فِي الْمَاءِ لِيَخْتَفِيَ فِي بَيْتِهِ.

حِينَهَا نَهَضَ الْقَيْوُطُ الْعَجُوزُ وَانْطَلَقَ يَبْحَثُ عَنْ عَشَائِهِ فِي مَكَانٍ آخَرَ، وَقَدْ امْتَلَأَ
قَلْبُهُ بِحَسْرَةٍ مَرِيرَةٍ.

خُطَّةُ الْقَيْوُطِ الْجَدِيدَةِ

عَلَى مَدَى ثَلَاثِ لَيَالٍ كَانَ الْقَيْوُطُ الْعُجُوزُ يَنْسَلُّ عِبْرَ الْعَابَةِ الْخَضِرَاءِ مَعَ حُلُولِ خُيُوطِ الظَّلَامِ السَّوْدَاءِ وَيَخْتَبِئُ بَيْنَ أَشْجَارِ الْحَوْرِ الرَّجْرَاجِ حَيْثُ اعْتَادَ الْقُنْدُسُ بَادِي أَنْ يَقْطَعَ طَعَامَهُ، وَعَلَى مَدَى ثَلَاثِ لَيَالٍ لَمْ يَأْتِ بَادِي إِلَى الشَّاطِئِ؛ فَكُلَّ لَيْلَةٍ كَانَ يَبْدُو أَنَّ لَدَيْهِ مَا يَكْفِي مِنَ الْأَخْشَابِ فِي الْمَاءِ لِيُبْقِيَهُ مَشْغُولًا دُونَ تَقْطِيعِ الْمَزِيدِ مِنَ الْأَشْجَارِ. فَتَمَدَّدَ الْقَيْوُطُ الْعُجُوزُ هُنَاكَ، وَقَدْ تَحَوَّلَتْ نَظْرَةُ الْجُوعِ فِي عَيْنَيْهِ إِلَى نَظْرَةِ شَكٍّ ثُمَّ نَظْرَةِ رِيْبَةٍ؛ فَهَلْ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الْقُنْدُسُ بَادِي أُنْكَى مِمَّا تَصَوَّرَ؟ فَقَدْ بَدَأَ كَأَنَّ بَادِي يَعْلَمُ تَمَامًا أَنَّهُ يَخْتَبِئُ هُنَاكَ كُلَّ لَيْلَةٍ. نَعَمْ، هَكَذَا بَدَأَ الْأَمْرُ. فَخِلَالَ ثَلَاثِ لَيَالٍ لَمْ يَقْطَعْ بَادِي شَجَرَةً وَاحِدَةً، وَكُلَّ لَيْلَةٍ يَكُونُ لَدَيْهِ قَدْرٌ وَفِيرٌ مِنَ الْأَخْشَابِ يَنْقُلُهُ إِلَى مَخْزَنِهِ فِي الْبَرْكَةِ.

فَفَكَّرَ الْقَيْوُطُ الْعُجُوزُ، أَثْنَاءَ عَوْدَتِهِ إِلَى الْبَيْتِ مُتَعَبًا فِي اللَّيْلَةِ الثَّلَاثَةِ وَقَدْ امْتَلَأَ قَلْبُهُ بِغَضَبٍ شَدِيدٍ، قَائِلًا: «مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُ يَأْتِي إِلَى الشَّاطِئِ نَهَارًا لِيَقْطَعَ أَشْجَارَهُ. لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ قَدْ كَشَفَ أَمْرِي وَحْدَهُ؛ فَهُوَ لَا يَمْتَلِكُ الذِّكَاءَ الْكَافِيَ لِذَلِكَ. لَا بُدَّ أَنْ أَحَدًا أَخْبَرَهُ. وَلَا أَحَدٌ يَعْلَمُ بِذَهَابِي إِلَى هُنَاكَ سِوَى طَائِرِ السَّنْدِيَانِ سَامِي. لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ هُوَ الْوَاشِي. أَظُنُّنِي سَأَذْهَبُ لِمَزَارَةِ بَادِي غَدًا أَثْنَاءَ النَّهَارِ، وَحِينَهَا سَنَرَى!»

مُشْكِلُهُ بَعْضُ الْأَذْكِيَاءِ أَنَّهُمْ لَا يُمْكِنُهُمْ أَبَدًا تَصَدِيقُ أَنَّ الْآخَرِينَ قَدْ يَكُونُونَ بِمِثْلِ ذِكَائِهِمْ؛ فَالْقَيْوُطُ الْعُجُوزُ لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ عِنْدَمَا زَارَ بَرْكَةَ بَادِي لِلْمَرَّةِ الْأُولَى خَلَفَ وَرَاءَهُ أَثَرٌ قَدِيمٌ فِي رُقْعَةٍ صَغِيرَةٍ مِنَ الطِّينِ الرُّطْبِ. وَلَوْ عَلِمَ ذَلِكَ، لَمَا صَدَّقَ أَنَّ بَادِي يَمْلِكُ الذِّكَاءَ الْكَافِيَ لِيَحْمَنَ مَذْلُولَ ذَلِكَ الْأَثَرِ. لِذَا أَلْقَى الْقَيْوُطُ الْعُجُوزُ بِالْوُجْهِ كُلِّهِ عَلَى سَامِي،

وَفِي الصَّبَاحِ ذَاتِهِ، عِنْدَمَا حَلَّقَ سَامِي فَوْقَ الْمُرُوجِ الْخَضِرَاءِ، اتَّهَمَهُ الْقَيْوُطُ الْعَجُوزُ بِأَنَّهُ وَاِشْ، وَهَدَّدَهُ بِأَنْ يَفْعَلَ بِهِ أَفْظَعَ الْأَشْيَاءِ إِنْ أَمْسَكَ بِهِ يَوْمًا.

وَكَانَ سَامِي قَدْ طَارَ إِلَى الْمُرُوجِ الْخَضِرَاءِ لِيُخْبِرَ الْقَيْوُطَ الْعَجُوزَ أَنَّ بَادِي كَانَ يُنْهِي كُلَّ عَمَلِهِ عَلَى الْبَرِّ أَثْنَاءَ النَّهَارِ. وَلَكِنْ عِنْدَمَا رَاحَ الْقَيْوُطُ الْعَجُوزُ يُنَادِيهِ بِالْوَاِشِيِّ وَيَتَّهَمُهُ بِأَنَّهُ أُنْذَرَ بَادِي، وَيَهْدُدُهُ بِأَفْظَعَ الْأَشْيَاءِ، نَسِيَ كُلَّ غَضَبِهِ مِنْ بَادِي عَلَى الْفُورِ وَصَبَّ جَامَ غَضَبِهِ عَلَى الْقَيْوُطِ الْعَجُوزِ. فَأَطْلَقَ عَلَيْهِ كُلَّ حَصِيلَتِهِ الْكَبِيرَةِ مِنَ السَّبَابِ؛ إِذْ إِنَّ سَامِي سَلِيطُ اللَّسَانِ. وَعِنْدَمَا انْقَطَعَتْ أَنْفَاسُهُ، طَارَ إِلَى الْغَابَةِ الْخَضِرَاءِ؛ حَيْثُ اخْتَبَأَ فِي مَوْقِعٍ يُمْكِنُهُ مِنْهُ مُرَاقَبَةُ كُلِّ مَا يَحْدُثُ.

وَعَصَرَ ذَلِكَ الْيَوْمَ جَرَّبَ الْقَيْوُطُ الْعَجُوزُ خُطَّتَهُ الْجَدِيدَةَ. فَتَسَلَّلَ إِلَى الْغَابَةِ الْخَضِرَاءِ، جَائِلًا بِبَصَرِهِ فِيمَا حَوْلَهُ كَيْ يَتَأَكَّدَ أَنَّ أَحَدًا لَمْ يَرَهُ. ثُمَّ تَسَلَّلَ بِنُعُومَةٍ بِالْغَةِ عِبْرَ الْغَابَةِ الْخَضِرَاءِ تَجَاهَ بَرَكَةِ الْقُنْدُسِ بَادِي. وَعِنْدَمَا دَنَا مِنْهَا، سَمِعَ صَوْتَ ارْتِطَامٍ، فَأَبْتَسَمَ؛ فَقَدْ عَرَفَ مَعْنَى ذَلِكَ الصَّوْتِ؛ فَمَعْنَاهُ أَنَّ بَادِي كَانَ يَعْمَلُ عَلَى تَقْطِيعِ الْأَشْجَارِ. فَتَسَلَّلَ إِلَى الْأَمَامِ مُنْبَطِحًا حَتَّى كَادَ بَطْنُهُ يَلْمُسُ الْأَرْضَ، شَيْئًا فَشَيْئًا، شَيْئًا فَشَيْئًا، مُتَوَخِّيًا أَشَدَّ الْحَذَرِ لِكَيْلَا يَحْرُكَ وَلَوْ وَرَقَةً شَجَرٍ. وَسُرْعَانَ مَا بَلَغَ مَوْضِعًا أَمْكَنَهُ رُؤْيَا أَشْجَارِ الْحَوْرِ الرَّجْرَاجِ مِنْهُ، وَهُنَاكَ كَانَ بَادِي فِعْلًا، جَالِسًا عَلَى سَاقِيهِ الْخُلْفِيَّتَيْنِ يَعْمَلُ بِكَدٍّ فِي تَقْطِيعِ شَجَرَةٍ أُخْرَى.

فَاسْتَلْقَى الْقَيْوُطُ الْعَجُوزُ بِضَعٍ دَقَائِقَ لِإِرْقَابِ الْمَشْهَدِ. ثُمَّ زَحَفَ مُقْتَرِبًا مِنْهُ أَكْثَرَ. ثُمَّ سَحَبَ سَاقِيهِ تَحْتَهُ بِبُطْءٍ وَحَذَرٍ وَتَأَهَّبَ لِلْوُثْبِ. وَأَخِيرًا كَانَ الْقُنْدُسُ بَادِي فِي مَرْمَى انْقِضَاضِهِ! وَفِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ انْطَلَقَتْ صَيْحَةً خَشَنَةً فَوْقَ رَأْسِهِ مُبَاشَرَةً: «لِصْ! لِصْ! لِصْ!»

كَانَتْ تِلْكَ صَيْحَةُ طَائِرِ السَّنْدِيَانِ سَامِي، الَّذِي تَبِعَهُ بِصَمْتٍ طَوَالَ الطَّرِيقِ. فَلَمْ يَتَوَقَّفِ الْقُنْدُسُ بَادِي وَلَوْ لِيَنْظُرَ حَوْلَهُ؛ فَقَدْ كَانَ يَعْلَمُ مَعْنَى تِلْكَ الصَّيْحَةِ، وَقَدْ هُرِعَ سَالِكًا مَمَرَهُ الضَّيِّقَ إِلَى الْمِيَاهِ أَسْرَعَ مِنْ أَيِّ وَقْتٍ مَضَى. ثُمَّ قَفَزَ فِي الْمَاءِ مُحْدِثًا صَوْتًا عَالِيًا، بَيْنَمَا وَثَبَ الْقَيْوُطُ الْعَجُوزُ وَثَبَةً هَائِلَةً وَهَبَطَ عِنْدَ حَافَةِ الْبَرَكَةِ مُبَاشَرَةً.

صَدَاقَةُ بَادِي وَسَامِي

طَفَا الْقُنْدُسُ بَادِي عَلَى سَطْحِ الْمَاءِ فِي بَرَكَّتِهِ وَقَدْ أَسْفَرَ وَجْهَهُ عَنِ ابْتِسَامَةٍ شَدِيدَةٍ
الِاسْتَفْرَازِ لِلْقَيْوُطِ الْعَجُوزِ، الَّذِي كَادَ يُمْسِكُ بِهِ. وَكَانَ الْقَيْوُطُ الْعَجُوزُ يَرْتَجِفُ غَضَبًا عَلَى
ضَفَّةِ الْبَرَكَّةِ؛ فَقَدْ كَانَ وَاثِقًا لِلْغَايَةِ مِنْ نَيْلِهِ مِنْ بَادِي تِلْكَ الْمَرَّةِ، حَتَّى إِنَّهُ وَجَدَ صُعُوبَةً
كَبِيرَةً فِي تَصْدِيقِ أَنَّ بَادِي أَفْلَتَ مِنْهُ حَقًّا. وَكَثَّرَ عَنْ أَنْبَايِهِ الطَّوِيلَةِ الْقَاسِيَةِ، فَبَدَأَ شَرِسًا
وَقَبِيحًا لِلْغَايَةِ.

فَنَادَاهُ بَادِي قَائِلًا: «تَعَالَ إِلَى هُنَا؛ فَالْمِيَاهُ رَائِعَةٌ!»
لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ تَصَرُّفًا لَطِيفًا مِنْ بَادِي بِالطَّبْعِ؛ فَقَدْ أَدَّى إِلَى زِيَادَةِ غَضَبِ الْقَيْوُطِ
الْعَجُوزِ فَحَسَبُ. أَدْرَكَ بَادِي جَيِّدًا أَنَّهُ فِي أَمَانٍ تَامٍ؛ وَمِنْ ثَمَّ لَمْ يَسْتَطِعْ مُقَاوَمَةَ إِغْرَاءِ
التَّلَفُّظِ بِنَعْصِ الْكَلِمَاتِ الْقَاسِيَةِ؛ فَقَدْ اضْطُرَّ إِلَى تَوَخِّي الْحَذَرِ لِأَيَّامٍ خَوْفًا مِنْ أَنْ يُمْسَكَ
بِهِ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُجِدَّ عَمَلُهُ كَمَا كَانَ يَفْعَلُ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِ مَا يَخْشَاهُ، وَمَا زَالَ أَمَامَهُ
تَجْهِيزَاتٌ كَثِيرَةٌ مِنْ أَجْلِ الشِّتَاءِ؛ لَذَا أَخْبَرَ الْقَيْوُطَ الْعَجُوزَ عَنْ رَأْيِهِ فِيهِ دُونَ مُوَارَبَةٍ، وَأَنَّهُ
لَيْسَ بِالذِّكَاةِ الَّذِي يَظُنُّهُ، وَإِلَّا فَمَا كَانَ تَرَكَ أَثَرَ قَدَمِهِ فِي الطِّينِ لِيَكْشِفَ أَمْرَهُ.
عِنْدَمَا سَمِعَ طَائِرُ السَّنْدِيَانِ سَامِي ذَلِكَ الْكَلَامَ — إِذْ كَانَ يُصْغِي وَيَضْحَكُ مِمَّا
يُصْغِي إِلَيْهِ — طَارَ إِلَى حَيْثُ كَادَ يَكُونُ فِي مُنْتَوَالِ يَدِ الْقَيْوُطِ الْعَجُوزِ، ثُمَّ أَطْلَقَ لِسَانَهُ،
وَيَقُولُ الْبَعْضُ كَمَا تَعْرِفُونَ إِنَّ لِسَانَ سَامِي بَالِغُ الطُّولِ إِلَى مَا لَا نِهَايَةَ. لَيْسَ ذَلِكَ

صَحِيحًا بِالطَّبْعِ، وَلَكِنَّهُ عِنْدَمَا يَشْرَعُ فِي الْإِسَاءَةِ إِلَى النَّاسِ يَبْدُو أَكِيدًا أَنَّ ذَلِكَ الْقَوْلَ صَحِيحٌ. وَقَدْ نَعَتَ الْفَيُوطُ الْعَجُوزَ بِكُلِّ مَا عَرَفَهُ مِنْ سَبَابٍ؛ فَنَعَتَهُ بِالْمُتَسَلِّلِ وَاللَّصِّ وَالْجَبَانِ وَالْمُسْتَأْسِدِ عَلَى الضُّعَفَاءِ، وَالْفَافِظِ أُخْرَى كَثِيرَةً.

وَصَاحَ سَامِي قَائِلًا: «قُلْتُ إِنِّي أَنْذَرْتُ بَادِي بِمَحَاوَلَتِكَ الْإِمْسَاكَ بِهِ، وَأَنَّكَ لِدَٰلِكَ لَمْ تَجِدْهُ يَعْمَلُ أَثْنَاءَ اللَّيْلِ، وَطَوَالَ الْوَقْتِ كُنْتُ أَنْتَ مَنْ أَنْذَرَهُ! كُنْتُ أَظُنُّكَ ذَكِيًّا، وَلَكِنِّي عَرَفْتُ الْحَقِيقَةَ الْآنَ؛ فَذَكَاءُ بَادِي ضَعْفُ ذَكَائِكَ.»

السَّيِّدُ الْفَيُوطُ شَدِيدُ الْمَكْرِ،

السَّيِّدُ الْفَيُوطُ بَارِعٌ وَرَشِيقٌ،

إِنْ صَدَقَتْ مَا سَمِعْتُهُ.

فَالسَّيِّدُ الْفَيُوطُ لَا يَتَمَتَّعُ بِتِلْكَ السَّمَاتِ؛

السَّيِّدُ الْفَيُوطُ غَيْبِيٌّ وَأَعْمَى،

وَلَا يُمْكِنُهُ الْإِمْسَاكُ بِرَغْوَةٍ عَلَى أُذُنِهِ.

ضَحِكَ الْفُنْدُسُ بَادِي حَتَّى دَمَعَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْأَبْيَاتِ الْحَمَقَاءِ الَّتِي أَلْقَاهَا سَامِي، وَلَكِنَّهَا زَادَتْ الْفَيُوطُ الْعَجُوزَ غَضَبًا عَلَى غَضَبٍ. كَانَ غَاظِبًا مِنْ بَادِي لِأَنَّهُ أَفْلَتَ مِنْ يَدَيْهِ، وَغَاظِبًا مِنْ سَامِي، بَلْ شَدِيدَ الْغَضَبِ، وَكَانَ أَسْوَأَ مَا فِي الْأَمْرِ أَنَّهُ عَاجِزٌ عَنِ الْإِمْسَاكِ بِأَيِّهِمَا؛ فَأَحَدُهُمَا كَانَ بَيْتُهُ فِي الْمَاءِ وَالْآخَرُ كَانَ بَيْتُهُ فِي الْهَوَاءِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي إِمْكَانِهِ أَنْ يَتَّبَعَ أَيًّا مِنْهُمَا فِي بَيْتِهِ. وَفِي النِّهَايَةِ فَهَمَّ أَنَّهُ لَا جَدْوَى مِنَ الْبَقَاءِ؛ حَيْثُ صَارَ أَضْحُوكَةً، فَانْطَلَقَ إِلَى الْغَابَةِ، وَهُوَ يُرْغِي وَيُزِيدُ.

فَمَا إِنْ اخْتَفَى عَنِ الْأَنْظَارِ حَتَّى التَفَتَ بَادِي إِلَى سَامِي.

وَقَالَ: «يَا سَيِّدِي طَائِرُ السَّنْدِيَانِ؛ فَقَدْ كَانَ يَعْلَمُ كَمْ يَطِيبُ لِسَامِي أَنْ يُنَادِيَ بِسَيِّدِي، وَأَرَدَفَ: «يَا سَيِّدِي طَائِرُ السَّنْدِيَانِ، قَدْ أَسَدَيْتَ لِي مَعْرُوفًا عَظِيمًا الْيَوْمَ، وَلَنْ أَنْسَاهُ. يُمْكِنُكَ أَنْ تَنْعَتَنِي بِمَا تَشَاءُ وَتَصِيحُ بِي كَمَا تَشَاءُ، وَلَكِنَّكَ لَنْ تَجِدَ أَيَّ رِضَا فِي ذَلِكَ؛ لِأَنِّي لَنْ أَغْضَبَ. سَأَقُولُ لِنَفْسِي «لَقَدْ أَنْقَذَ سَيِّدِي طَائِرُ السَّنْدِيَانِ حَيَاتِي ذَلِكَ الْيَوْمَ»، وَلَنْ أَتَضَاقَّ مِمَّا تَقُولُ.»

صَدَاقَةُ بَادِي وَسَامِي

فَأُورِثَ ذَلِكَ الْكَلَامُ سَامِي شُعُورًا بِفَخْرٍ بَالِغٍ وَسَعَادَةٍ غَامِرَةٍ؛ فَمِنَ النَّادِرِ جِدًّا أَنْ
يَسْمَعَ كَلَامًا لَطِيفًا عَنْهُ؛ فَطَارَ إِلَى أَحَدِ جُذُوعِ الْأَشْجَارِ الَّتِي قَطَعَهَا بَادِي، وَقَالَ: «لِنَكُنْ
أَصْدِقَاءَ».

فَأَجَابَهُ بَادِي قَائِلًا: «بِكُلِّ سُرُورٍ!»

الفصل العشرون

سامي يَعرِضُ المُسَاعَدَةَ

جَلَسَ بادِي يَنْظُرُ مُتَأَمِّلًا إِلَى أَشْجَارِ الْحَوْرِ الرَّجْرَاجِ الَّتِي يَجِبُ عَلَيْهِ تَقْطِيعُهَا حَتَّى يُكْمَلَ مَخْزُونُهُ مِنَ الْغِذَاءِ لِفَصْلِ الشِّتَاءِ؛ فَقَدْ قُطِعَتْ جَمِيعُ الْأَشْجَارِ الْقَرِيبَةِ مِنْ حَافَةِ الْبِرْكََةِ، أَمَّا الْأَشْجَارُ الْأُخْرَى فَكَانَتْ مُتَنَائِثَةً عَلَى مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ عَنْهَا بَعْضُ الشَّيْءِ. ثُمَّ قَالَ بِصَوْتٍ عَالٍ: «لَا أَذْرِي. لَا أَذْرِي.»

فَسَأَلَهُ طَائِرُ السَّنْدِيَانِ سَامِي، الَّذِي صَارَ شَدِيدَ الْاهْتِمَامِ بِمَا يَفْعَلُهُ بادِي بَعْدَ أَنْ أَصْبَحَا صَدِيقَيْنِ: «مَا الَّذِي لَا تَذَرِيه؟»

فَأَجَابَهُ بادِي قَائِلًا: «لَا أَذْرِي كَيْفَ أَحْصِلُ عَلَى تِلْكَ الْأَشْجَارِ. فَالآنَ وَقَدْ صَارَ الْقَبُوطُ الْعُجُوزُ لِي بِالْمُرْصَادِ، لَمْ يَعُدْ ابْتِعَادِي عَنِ الْبِرْكََةِ آمِنًا. أَظُنُّ أَنَّ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ أَخْفِرَ قَنَاءً إِلَى أَقْرَبِ الْأَشْجَارِ ثُمَّ أَدْفَعَهَا عَبْرَ الْقَنَاءِ إِلَى الْبِرْكََةِ، وَلَكِنْ مِنَ الصَّعْبِ أَنْ أَعْمَلَ وَأُبْقِيَ عَيْنًا يَقْظَةً عَلَى الْأَعْدَاءِ فِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ. أَظُنُّنِي سَأُكْتَفِي بِبَعْضِ أَشْجَارِ جَارِ الْمَاءِ الَّتِي تَنْمُو بِالْقُرْبِ مِنَ الْمَاءِ، وَلَكِنَّ لِحَاءَ أَشْجَارِ الْحَوْرِ الرَّجْرَاجِ أَطْيَبَ بِكَثِيرٍ، حَتَّى إِنَّنِي أَتَمَنَّى لَوْ كَانَ بِإِمْكَانِي أَنْ أَحْصِلَ عَلَيْهَا.»

فَسَأَلَهُ سَامِي بَغْتَةً: «مَاذَا تَقْصِدُ بِالْقَنَاءِ؟»

فَأَجَابَهُ بادِي قَائِلًا: «الْقَنَاءُ؟ إِنَّهَا نَوْعٌ مِنَ الْمَصَارِفِ الَّتِي يُمَكِّنُ لِلْمَاءِ أَنْ يَجْرِيَ فِيهَا.»

فَأَوْمَأَ سَامِي بِرَأْسِهِ قَائِلًا: «رَأَيْتُ الْمُزَارِعَ بَرَاوَنَ يَحْفِرُ قَنَاءً عِنْدَ الْمُرُوجِ الْخَضِرَاءِ، وَلَكِنَّ الْأَمْرَ بَدَأَ شَقًّا. لَمْ أَتَحَيَّلْ أَنَّ أَحَدًا غَيْرَهُ يُمَكِّنُهُ الْقِيَامُ بِهِ. أَتَقْصِدُ حَقًّا أَنَّهُ يُمَكِّنُكَ أَنْ تَحْفِرَ قَنَاءً يَا بادِي؟!»

فَأَجَابَهُ بَادِي، وَقَدْ اصْطَبَعَ صَوْتُهُ بِالْدَّهْشَةِ: «طَبْعًا أَقْصِدُ ذَلِكَ؛ فَقَدْ شَارَكْتُ فِي حَفْرِ الْعَدِيدِ مِنَ الْقَنَوَاتِ. حَرِيٌّ بِكَ أَنْ تَرَى بَعْضَهَا فِي الْمَكَانِ الَّذِي أَتَيْتَ مِنْهُ.»
فَرَدَّ عَلَيْهِ سَامِي قَائِلًا: «أَوَدُّ ذَلِكَ. أَظُنُّهُ أَمْرًا شَدِيدَ الرُّوعَةِ. لَا أَتَحَيَّلُ كَيْفَ تَفْعَلُهُ.»
فَرَدَّ عَلَيْهِ بَادِي قَائِلًا: «إِنَّهُ أَمْرٌ هَيِّنٌ إِنْ عَرَفْتَ الطَّرِيقَةَ. لَوْ كَانَ لَدَيَّ الْجُرَاةُ لَأَرَيْتُكَ.»

فَخَطَرَتْ بِبَالِ سَامِي فِكْرَةٌ مَفَاجِئَةٌ حَتَّى كَادَ يَشْهَقُ، فَهَنَفَ: «مَا رَأَيْتُكَ أَنْ تَعْمَلَ أَنْتَ وَأَرَأَيْتُ أَنْتَ الْمَكَانَ؟ فَعَيْنَايَ ثَاقِبَتَانِ كَمَا تَعْلَمُ.»

هَنَفَ بَادِي بِحِمَاسٍ قَائِلًا: «حَقًّا؟! سَيَكُونُ ذَلِكَ أَمْرًا رَائِعًا لِلْغَايَةِ. فَبَصْرُكَ أَقْوَى مِنْ أَيْ أَحَدٍ أَعْرِفُهُ، وَسَأَشْعُرُ بِأَمَانٍ تَامٍ إِذَا تَوَلَّيْتُ أَنْتَ الْحِرَاسَةَ. وَلَكِنِّي لَا أُرِيدُ أَنْ أُنْسَبَبَ فِي مَشَقَّةٍ لَكَ يَا سَيِّدِي طَائِرَ السَّنْدِيَانِ.»

فَرَدَّ عَلَيْهِ سَامِي قَائِلًا: «لَنْ يَكُونَ فِي الْأَمْرِ أَيْ مَشَقَّةٍ، فَذَلِكَ مِنْ دَوَاعِي سُرُورِي حَقًّا.» وَقَدْ أَحَسَّ سَامِي فَخْرًا بِالْعَا لَدَى قَوْلِ بَادِي إِنَّ عَيْنَيْهِ ثَاقِبَتَانِ. ثُمَّ سَأَلَ: «مَتَى سَتَشْرَعُ فِي الْعَمَلِ؟»

فَقَالَ بَادِي: «فُورًا، إِنْ تَفَضَّلْتَ بِالْقَاءِ نَظْرَةً عَلَى الْمَكَانِ لِتَرَى إِنْ كَانَ خُرُوجِي مِنَ الْمَاءِ آمِنًا تَمَامًا.»

فَلَمْ يَنْتَظِرْ سَامِي لِيَسْمَعَ الْمَزِيدَ، بَلْ بَسَطَ جَنَاحَيْهِ الْأَزْرَقَيْنِ الْجَمِيلَيْنِ وَانْطَلَقَ عَبْرَ الْغَايَةِ إِلَى الْمُرُوجِ الْخَضِرَاءِ. فَشَاهَدَ بَادِي رَحِيلَهُ وَقَدْ بَدَتْ عَلَيْهِ الْحَيَرَةُ وَالْخَيْبَةُ. وَفَكَّرَ قَائِلًا: «عَجَبًا! ظَنَنْتُهُ يَعْزِي مَا قَالَهُ حَقًّا، وَهَذَا فَدٌ مَضَى دُونَ حَتَّى أَنْ يُودِّعَنِي!»

وَبَعْدَ بَرْهَةٍ عَادَ سَامِي مُتَقَطِّعَ الْأَنْفَاسِ، وَقَالَ لَاهْتًا: «الْأُمُورُ عَلَى مَا يَرَامُ. يُمْكِنُكَ الْبَدْءُ فِي الْعَمَلِ مَتَى شِئْتَ.»

فَبَدَأَ بَادِي مُحْتَارًا أَكْثَرَ مِنْ أَيْ وَقْتٍ مَضَى، وَسَأَلَ: «كَيْفَ عَرَفْتُ؟! لَمْ أَرَكَ تَجُولُ بِبَصْرِكَ فِي الْمَكَانِ.»

فَرَدَّ عَلَيْهِ سَامِي قَائِلًا: «لَقَدْ قُمْتُ بِمَا هُوَ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ؛ فَلَوْ كَانَ الْقَيْطُوطُ الْعَجُوزُ مُحْتَبِئًا فِي مَكَانٍ مَا بِالْغَايَةِ الْخَضِرَاءِ لَأَسْتَعْرِقَ عَثُورِي عَلَيْهِ بَعْضَ الْوَقْتِ، وَلَكِنَّهُ لَيْسَ مُحْتَبِئًا فِيهَا؛ فَقَدْ طُرْتُ إِلَى بَيْتِهِ فِي الْمُرُوجِ الْخَضِرَاءِ لِأَرَى إِنْ كَانَ هُنَاكَ أَمْ لَا، وَوَجَدْتُهُ

جَالِسًا تَحْتَ أَشْعَةِ الشَّمْسِ بَادِيًا عَلَيْهِ أَشَدُّ الْغَضَبِ. لَا أَظُنُّهُ سَيَعُودُ هُنَا هَذَا الصَّبَاحَ،
وَلَكِنِّي سَأُرَاقِبُ الْمَكَانَ جَيِّدًا أَثْنَاءَ قِيَامِكَ بِعَمَلِكَ.»

فَانْحَنَى بَادِي لِسَامِي انْجِنَاءً صَغِيرَةً، وَقَالَ: «إِنَّكَ ذَكِيٌّ حَقًّا يَا سَيِّدِي طَائِرَ
السُّنْدِيَانِ. مَا كَانَ لِيخْطُرَ بِيَالِي أَنْ أَذْهَبَ إِلَى بَيْتِ الْقَيْوُطِ الْعَجُوزِ لِأَرَى إِنْ كَانَ هُنَاكَ
أَمْ لَا. سَأَشْعُرُ بِأَمَانٍ تَامٍّ لَدَى تَوَلِّيكَ مُهِمَّةَ الْحِرَاسَةِ. وَالْآنَ سَأَشْرَعُ فِي الْعَمَلِ.»

الفصل الحادي والعشرون

بادي وسامي يتعاونان

مَكَثَ فَأَرُ الْمِسْكِ جِيرِي فِي بَيْتِهِ بِالْبُرْكََةِ الْبَاسِمَةِ أَيَّامًا عِدَّةً. وَلَكِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعِ الْبَقَاءَ هُنَاكَ فَبَدَأَ طَوِيلَةً. كَلَّا، لَمْ يَسْتَطِعْ؛ فَقَدْ كَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَعُودَ لِيَرَى مَا يَفْعَلُهُ ابْنُ عَمِّهِ الضَّخْمُ، الْقُنْدُسُ بَادِي. فَمَا إِنْ اِطْمَأَنَّ إِلَى أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ عَلَى مَا يُرَامُ فِي الْبُرْكََةِ الْبَاسِمَةِ، حَتَّى هَرَعَ عَائِدًا عَبْرَ الْجُدُولِ الضَّاحِكِ إِلَى بَرْكََةِ بَادِي، فِي جَوْفِ الْعَابَةِ الْخَضِرَاءِ. وَمَا إِنْ صَارَتْ فِي مَرْمَى بَصَرِهِ حَتَّى بَدَأَ يَبْحَثُ عَنْ بَادِي بِلَهْفَةٍ. فِي الْبِدَايَةِ لَمْ يَرَهُ، ثُمَّ تَوَقَّفَ وَتَطَّلَعَ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي كَانَ بَادِي يَقْطَعُ فِيهِ أَشْجَارَ الْحَوْرِ الرَّجْرَاجِ لِيَحْصَلَ عَلَى غِذَائِهِ. فَقَدْ كَانَ ثَمَّةَ شَيْءٍ مَا يَجْرِي هُنَاكَ، شَيْءٌ عَجِيبٌ لَمْ يَتِمَّكَنْ مِنْ اسْتِيعَابِهِ. وَفِي ذَلِكَ الْحِينِ، أَتَى طَائِرُ السُّنْدِيَانِ سَامِي مُحَلِّقًا فَوْقَهُ.

فَسَأَلَهُ جِيرِي: «مَا الَّذِي يَفْعَلُهُ بَادِي؟»
فَهَبَّطَ سَامِي عَلَى قِمَّةِ شَجَرَةٍ مِنْ أَشْجَارِ الْحَوْرِ الرَّجْرَاجِ وَنَفَسَ رِيَشَهُ كُلَّهُ فِي تَبَاهٍ وَاضِحٍ، ثُمَّ قَالَ: «أُوهُ، أَنَا وَبَادِي نَبْنِي شَيْئًا!»

فَضَحِكَ جِيرِي قَائِلًا: «أَنْتَ! أَنْتَ وَبَادِي! هَا هَا! أَنْتَ وَبَادِي نَبْنِيَانِ شَيْئًا!»
فَرَدَّ عَلَيْهِ سَامِي بِحِدَّةٍ وَغَضَبٍ قَائِلًا: «نَعَمْ، أَنَا! هَذَا مَا قُلْتُهُ؛ أَنَا وَبَادِي نَبْنِي شَيْئًا.»
كَانَ جِيرِي قَدْ بَدَأَ يَسْبُحُ عَبْرَ الْبُرْكََةِ حِينئِذٍ، بَيْنَمَا طَارَ سَامِي فَوْقَهَا. فَهَتَفَ بِهِ جِيرِي قَائِلًا: «لَمْ لَا تَقُولِ الْحَقِيقَةَ يَا سَامِي، وَتَقُولُ إِنَّ بَادِي يَبْنِي شَيْئًا بَيْنَمَا تُسَبِّبُ لَهُ أَنْتَ كُلَّ مَا يُمْكِنُكَ مِنْ مَتَاعٍ؟!»

فَبَرِقَتْ عَيْنَا سَامِي فِي غَضَبٍ، وَانْقَضَ تَجَاهَ رَأْسِ جِيرِي الْبُنِّي الصَّغِيرِ، صَارِخًا:
«لَيْسَ صَحِيحًا! فَلْتَسْأَلْ بَادِي عَمَّا إِذَا كُنْتُ أُسَاعِدُهُ أَمْ لَا!»

نَزَلَ جِيرِي تَحْتَ سَطْحِ الْمَاءِ فَرَارًا مِنْ مَنْقَارِ سَامِي الْحَادِّ. وَعِنْدَمَا صَعِدَ مُجَدِّدًا، كَانَ سَامِي فِي الدَّغْلِ الصَّغِيرِ الْمَكُونِ مِنْ أَشْجَارِ الْحَوْرِ الرَّجْرَاجِ حَيْثُ كَانَ بَادِي يَعْمَلُ بِكَدِّ. ثُمَّ اكْتَشَفَ جِيرِي شَيْئًا. فَمَاذَا كَانَ؟ كَانَ مَمَرًا مَائِيًا صَغِيرًا مُمَنَّدًا حَتَّى أَشْجَارِ الْحَوْرِ الرَّجْرَاجِ. وَهَنَّاكَ، عِنْدَ نِهَآيَةِ الْمَمَرِ الْمَائِيِّ، كَانَ بَادِي يَعْمَلُ بِكَدِّ. فَكَانَ يَحْفِرُ الْأَرْضَ وَيَكْوُمُ التُّرَابَ عَلَى أَحَدِ جَانِبَيْ الْمَمَرِ بِإِتْقَانٍ بَالِغٍ. فَقَدْ كَانَ، فِي الْوَاقِعِ، يَعْمَلُ عَلَى مَدِّ الْمَمَرِ الْمَائِيِّ. فَسَبَحَ جِيرِي عَبْرَ ذَلِكَ الْمَمَرِ حَتَّى وَصَلَ إِلَى حَيْثُ كَانَ بَادِي يَعْمَلُ. ثُمَّ قَالَ لَهُ: «صَبَّاحُ الْخَيْرِ يَا ابْنَ الْعَمِّ بَادِي. مَاذَا تَفْعَلُ؟»

فَأَجَابَهُ بَادِي قَائِلًا: «أُوهُ، أَنَا وَسَامِي نَحْفِرُ قَنَاةً». فَنَظَرَ سَامِي إِلَى جِيرِي نَظْرَةً مُنْتَصِرَةً، بَيْنَمَا نَظَرَ جِيرِي إِلَى بَادِي كَأَنَّمَا ظَنَّهُ يَمْزُحُ. وَسَأَلَ بَادِي: «سَامِي؟! وَمَا صَلَةُ سَامِي بِالْأَمْرِ؟!» فَزَدَ بَادِي قَائِلًا: «صَلَاةٌ قَوِيَّةٌ؛ فَهُوَ يَتَوَلَّى الْحِرَاسَةَ بَيْنَمَا أَعْمَلُ. وَلَوْ لَمْ يَتَوَلَّهَا، لَمَا اسْتَطَعْتُ الْعَمَلَ، وَلَمَا اسْتَطَعْتُ حَفْرَ الْقَنَاةِ؛ فَالْقِيُوطُ الْعُجُوزُ يُحَاوِلُ الْإِمْسَاكَ بِي، وَمَا كُنْتُ لِأَجْرُوهُ عَلَى الْعَمَلِ عَلَى الْبَرِّ لَوْ مَا كُنْتُ وَاثِقًا مِنْ أَنَّ أَقْوَى عَيْنَيْنِ فِي الْغَابَةِ تَحْرُسَانِنِي مِنْ الْخَطَرِ.»

بَدَأَ عَلَى سَامِي سُرُورٌ وَفَخْرٌ بِالْغَانِ. بَيْنَمَا أَنْهَى بَادِي حَدِيثَهُ بِعَيْنَيْنِ بِاسْمَتَيْنِ قَائِلًا: «لِذَا يَتَطَلَّبُ صُنْعُ تِلْكَ الْقَنَاةِ عَمَلًا مِنَّْا نَحْنُ الْإِثْنَيْنِ؛ أَنَا أَحْفِرُ وَسَامِي يَحْرُسُنِي؛ وَلِذَا فَإِنَّمَا نَحْفِرُهَا مَعًا.» فَقَالَ جِيرِي بِبُطْءٍ: «فَهِمْتُ.» ثُمَّ التَفَتَ إِلَى سَامِي وَقَالَ: «أَعْتَدِرُ إِلَيْكَ يَا سَامِي. حَقًّا أَعْتَدِرُ إِلَيْكَ.»

فَزَدَ عَلَيْهِ سَامِي بِمَرَحٍ قَائِلًا: «لَا بَأْسَ. وَمَا رَأَيْكَ فِي الْقَنَاةِ الَّتِي صَنَعْنَاهَا؟» فَقَالَ لَهُ جِيرِي: «أَظْنُّهَا رَائِعَةً.» وَقَدْ كَانَتْ قَنَاةٌ جَمِيلَةً حَقًّا، مُسْتَقِيمَةً وَوَاسِعَةً وَعَمِيقَةً بِمَا يَكْفِي لِأَنْ يَسْبَحَ فِيهَا بَادِي وَيَذْفَعَ بِجُذُوعِ الشَّجَرِ الَّتِي يُقَطِّعُهَا إِلَى الْبَرَكَةِ. نَعَمْ، كَانَتْ قَنَاةٌ جَمِيلَةً حَقًّا.

بادي يَفْرَغُ مِنْ حَصَادِهِ

بِلِسَانٍ لَذِيعٍ وَعَيْنَيْنِ ثَاقِبَتَيْنِ،
يَقِينِي سَامِي الْمُفَاجَأَتِ.
وَلَوْلَا سَامِي السَّنْدِيَانُ،
مَا حَقَّقْتُ الْيَوْمَ إِنْجَارَاتِ.

عِنْدَمَا صَادَفَ أَنَّ سَمِعَ سَامِي الْقُنْدُسَ بَادِي يَقُولُ ذَلِكَ الْكَلَامَ لِفَأَرِ الْمِسْكِ جِيرِي، شَعَرَ
بِالْفَخْرِ يَمْلُؤُهُ؛ فَقَدْ كَانَ مُعْتَادًا تَمَامًا عَلَى سَمَاعِ كَلَامِ سَيِّئٍ عَنْهُ، حَتَّى إِنَّ سَمَاعَهُ مِثْلُ
تِلْكَ الْكَلِمَاتِ الطَّيِّبَةِ عَنْهُ أَوْرَثَهُ سُرُورًا بَالِغًا؛ فَنَسِيَ فَوْرًا كُلَّ الْمُضَايِقَاتِ الَّتِي وَجَّهَهَا
لِبَادِي عِنْدَمَا رَأَاهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ، وَأَنَّهُ نَعْتَهُ بِاللَّصِّ لِأَنَّهُ قَطَعَ أَشْجَارَ الْحَوْرِ الرَّجْرَاجِ الَّتِي كَانَ
يَحْتَاجُهَا. فَنَسِيَ كُلَّ ذَلِكَ، وَنَسِيَ أَنَّ بَادِي جَعَلَ مِنْهُ أُضْحُوكَةَ الْغَابَةِ وَالْمَرْوَجِ الْخَضِرَاءِ
بِتَقْطِيعِهِ الشَّجَرَةَ ذَاتَهَا حَيْثُ كَانَ جَالِسًا. نَسِيَ كُلَّ شَيْءٍ سِوَى أَنَّ بَادِي عَهْدَ إِلَيْهِ بِمُهِمَّةِ
الْجَرَّاسَةِ وَأَنَّهُ يَقُولُ عَنْهُ كَلِمَاتٍ طَيِّبَةً الْآنَ. فَقَرَّرَ أَنْ يَكُونَ جَدِيرًا بِكُلِّ مَا قَالَهُ عَنْهُ بَادِي
مِنْ كَلِمَاتٍ طَيِّبَةٍ، وَظَنَّ أَنَّ بَادِي هُوَ أَفْضَلُ مَخْلُوقَاتِ الْعَالَمِ.

أَمَّا فَأَرِ الْمِسْكِ جِيرِي، فَبَدَأَ مُتَشَكِّكًا؛ فَهُوَ لَمْ يَكُنْ يَتَّقُ بِسَامِي، وَكَانَ يَحْرِصُ عَلَى
عَدَمِ الْإِبْتِعَادِ عَنِ الْمَاءِ عِنْدَمَا عِلِمَ أَنَّ الْقَيْوُطَ الْعَجُوزَ فِي الْجَوَارِ. وَلَكِنَّ بَادِي وَاصَلَ عَمَلَهُ
كَأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَيْءٍ يَخْشَاهُ فِي الْعَالَمِ.

وَقَالَ لِنَفْسِهِ: «إِنَّ السَّبِيلَ لِجَعْلِ النَّاسِ يَرْغَبُونَ فِي أَنْ يَكُونُوا مَحَلَّ ثِقَةٍ هُوَ أَنْ تَتَّقَ
بِهِمْ. فَإِذَا أَظْهَرْتَ لِسَامِي أَنَّي فِي الْوَاقِعِ لَا أَتَّقُ بِهِ، فَسَيَظُنُّ أَنَّهُ لَا فَائِدَةَ مِنَ الْمُحَاوَلَةِ

وَسَيَسْتَسْلِمُ. وَلَكِنِّي إِذَا وَثِقْتُ بِهِ حَقًّا، وَعَرَفَ أَنِّي أَثِقُ بِهِ، فَسَيَكُونُ أَفْضَلَ حَارِسٍ فِي الْعَابَةِ الْخَضِرَاءِ.»

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْقُنْدُسَ بَادِي يَتَحَلَّى بِقَدْرِ كَبِيرٍ مِنَ الْحِكْمَةِ، فَقَدْ تَحَقَّقَ ظَنُّهُ. فَكَانَ سَامِي يَأْتِي بِشَوْشًا فِي الصَّبَاحِ الْبَاكِرِ مِنْ كُلِّ يَوْمٍ. وَكَانَ يَتَأَكَّدُ مِنْ عَدَمِ وُجُودِ الْقَيْوُطِ الْعُجُوزِ فِي أَيِّ مَكَانٍ بِالْعَابَةِ الْخَضِرَاءِ، ثُمَّ يَسْتَقَرُّ مُرْتَاحًا عَلَى قِمَّةِ شَجَرَةِ صَنْوِيرٍ عَالِيَةٍ؛ حَيْثُ يُمْكِنُ لَهُ مُشَاهَدَةُ كُلِّ مَا يَحْدُثُ بَيْنَمَا يَقُومُ بَادِي بِعَمَلِهِ.

وَكَانَ بَادِي قَدْ انْتَهَى مِنْ حَفْرِ الْقَنَاةِ، وَكَانَتْ قَنَاةٌ جَمِيلَةٌ، تَتَّجُهُ مِنَ الْبُرْكَةِ إِلَى أَشْجَارِ الْحَوْرِ الرَّجْرَاجِ مُبَاشَرَةً. فَمَا إِنِ انْتَهَى مِنْ حَفْرِهَا، حَتَّى بَدَأَ يَقْطَعُ الْأَشْجَارَ. وَبِمَجْرَدِ أَنْ تَسْقُطَ إِحْدَاهَا، كَانَ يَقْطَعُهَا إِلَى أَجْزَاءٍ قَصِيرَةٍ وَيُدْخِرُهَا إِلَى الْقَنَاةِ، ثُمَّ يَدْفَعُهَا إِلَى بَرْكَتِهِ وَمِنْهَا إِلَى مَخْرَنِهِ. وَكَانَ يَأْخُذُ الْفُرُوعَ الْكَبِيرَةَ، الَّتِي يَكْسُوهَا اللَّحَاءُ الطَّرِيُّ الْحُلُو، بِالطَّرِيقَةِ ذَاتِهَا، فَبَادِي لَا يُهْدِرُ شَيْئًا أَبَدًا.

وَبَعْدَ فَتْرَةٍ، ذَهَبَ إِلَى مَخْرَنِهِ، الَّذِي يَتَكُونُ مِنْ كَوْمَةٍ كَبِيرَةٍ مِنْ جُدُوعِ الْحَوْرِ الرَّجْرَاجِ وَفُرُوعِهِ لَا أَكْثَرَ، فِي بَرْكَتِهِ بِالْقُرْبِ مِنْ بَيْتِهِ. فَتَفَحَّصَ الْمَخْرَنَ بِحَرِصٍ بَالِغٍ. ثُمَّ سَبَحَ عَائِدًا وَخَرَجَ إِلَى ضَفَةِ الْقَنَاةِ.

وَقَالَ: «يَا سَيِّدِي طَائِرِ السَّنْدِيَانِ، أَظُنُّ عَمَلَنَا قَدْ انْتَهَى تَقْرِيْبًا.»

فَهْتَفَ سَامِي: «مَاذَا؟! أَلَنْ تَقْطَعَ بَقِيَّةَ أَشْجَارِ الْحَوْرِ الرَّجْرَاجِ؟»

فَأَجَابَهُ بَادِي قَائِلًا: «كَلَّا، لَا بُدَّ أَنْ نَتَوَقَّفَ؛ فَلَدَيَّ مِنَ الطَّعَامِ مَا يَكْفِينِي طَوَالَ الشِّتَاءِ. فَأَنَا أَوْدُ الْإِحْتِفَاطَ بِتِلْكَ الْأَشْجَارِ مِنْ أَجْلِ الْعَامِ الْقَائِمِ. أَمَّا الْآنَ فَقَدْ صَارَ لَدَيَّ مَخْرُوزٌ كَافٍ لِلشِّتَاءِ. وَأُظَنُّنِي سَاسْتَرِيحُ بَعْضَ الْوَقْتِ.»

فَبَدَأَ عَلَى سَامِي الْإِحْبَاطُ؛ فَكَانَ قَدْ بَدَأَ يَكْتَشِفُ لِتَوَّهُ أَنْ أَعْظَمَ سَعَادَةٍ فِي الْعَالَمِ مَنبُعُهَا السَّعْيُ فِي حَوَائِجِ الْآخَرِينَ. وَلِلْمَرَّةِ الْأُولَى فِي حَيَاتِهِ ثَمَّةٌ أَحَدٌ يَرْغَبُ فِي وُجُودِهِ؛ وَهُوَ مَا مَنَحَهُ شُعُورًا رَائِعًا فِي أَعْمَاقِهِ! وَرَبَّمَا كَانَتْ ذِكْرَى ذَلِكَ الشُّعُورِ الرَّائِعِ هِيَ السَّبَبُ فِي رَغْبَتِهِ وَلَهْفَتِهِ الشَّدِيدَتَيْنِ فِي مُسَاعَدَةِ الْغَيْرِ فِيمَا بَعْدُ.

